الظرفاء

محمود السعدني



كتاب اليوم
يصدر عن دار أخبار اليوم

الظرفاء

محمود السعدني

العدد ٣٣٥
طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

● كتاب اليوم ● العدد ٣٣٥ ●

اسسه
مصطفى امين
وعلى امين
رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم سعده
المشرف على التحرير
● جمال الغيطانى ●

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٢٤ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ١٥ دولارا
اتحاد البريد الافريقى ٢٠ دولارا امريكيا او ما يعادله
باقى دول العالم واوربا والامريكتين ٢٥ دولارا
امريكا الجنوبية واليابان واستراليا ٣٠ دولارا امريكيا او ما يعادله
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة الى الاشتراكات ٣ (أ) ش الصحافة القاهرة ت ٥٧٤٨١٠٠ (٥ خطوط)
● تلكس : ٢٢٨٢ محلى ٢٠٣٢١ دولى

رسوم الشخصيات : محمد عفت
ماكيت : عبد الكريم محمود

اسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	٢٥	درهم
لبنان	١٢٠٠	ليرة
الاردن	١٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	١٥٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٥٠	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١٠٠٠	فلس
سلطنة عمان	١٠٠٠	بيسة
غزة	١٥٠	سنت
ع. اليمنية	٣٥	ريال
الصومال نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريالات
انجلترا	١,٧٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	فلورن
الهند	٣٥٠	روبية
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
بيونس ايرس والشيلى	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

تقـــــــديـم

رأى الاستاذ محمود السعدنى أن يسمى كتابه هذا ، « الظرفاء » ورأى - ولا أدرى لماذا ؟ - أن أكون واحدا من هؤلاء الظرفاء .. ثم رأى أن أساهم فى الكتابة بكلمة ! ..

وأبادر فأؤكد للقراء أن الصورة التى رسمها لى صديقى السعدنى لا تمثل من حقيقتى إلا اسمى .. لو كنت أحد الظرفاء الذين خصهم بعنايته لرضيت بما نسبه إلى من مزايا تافهة .. وعيوب جميلة .. وأشياء أخرى غريبة تثير السخرية والابتسام !

وكتاب السعدنى ، بعد ذلك ، متحف أنيق يضم آثار بعض من الشخصيات المصرية الموهوبة ، وقد تناول المؤلف هذه الشخصيات بالدراسة المرحة ، والتحليل الضاحك ، وأضفى على حياتها ظلالا كثيرة من خياله السخى ! ..

وللسعدنى خيال طاغ قوى ، غير أن هذا الخيال على طغيانه وقوته لا يقهر الحقائق دائما .. فكثيراً ما خضع لها ، وهو فى حديثه عن بعض ظرفاء مصر ، لا يمشى وراء الحقيقة المجردة ، ولا يمشى أمامها ، ولكن يسير معها ، يصادقها أحيانا ، ثم يخاصمها كما يخاصم الصديق صديقه !

والشخصيات التى عرضها السعدنى فى متحفه ، تمثل الطبيعة المصرية ، بذكائها ومكرها ، وسخريتها ، تمثل حضور البديهة ، ودقة الملاحظة ، وخفة الروح ..

وقد كانت النكتة السلاح السرى الفتاك الذى استخدمه المصريون فى محاربة الغزاة والمحتلين ، كانت النكتة هى

الفدائى الجسور الذى استطاع ان يتسلل الى قصور الحكام ، وحصون الطغاة فأقض مضاجعهم ، وملأ صدورهم بالرعب والقلق ..

والنكتة المصرية القوية تعتمد على المبالغة فى تصوير حقيقة ، أو تشويه حقيقة .

● كان زيور باشا رئيسا للوزارة وكان ضخم الجثة ، فوصفه عبد العزيز البشرى بأنه إذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالس إلى الشمال أو هو جالس إلى اليمين .. ؟ وأنه كان يمشى فى حديقة داره فتراهن أثنان من المارة هل هو يسير امامهما أو هو متجه إليهما ! ..

● وكان مأمون[*] الشناوى يتكلم عن سرعة تضخم حمادة الطرابلسى وإطراد الزيادة فى وزنه فقال أنه كان يجلس معه فرآه وهو « بيتخن » ... !

● وكان حفنى محمود وزيرا للمواصلات فسمع صوتا عاليا يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفته فاستدعى الساعى وسأله : ايه الزيطة دى ؟ فقال له الساعى ان السكرتير يتكلم من الاسكندرية ، فقال حفنى محمود : قل له بدل ما يزعق كده .. يتكلم فى التليفون !

● وكان حافظ ابراهيم جالسا فى حديقة داره بحلوان ودخل عليه عبد العزيز البشرى وبادره قائلا : لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست .. فقال حافظ ابراهيم : والله يظهر ان نظرنا ضعف ، أنا كمان شفتك وأنت جاى أفتكرتك راجل !

● وكان البشرى وحافظ ابراهيم مدعوين إلى إحدى الرحلات ودخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم وطلب اليه أن يرتدى ملابسه فقال حافظ أنا لسه مغسلتش وشى ، فقال له البشرى : وشك موش عاوز غسيل .. نفضه كفاية !

* * *

● وتعود عبد العزيز البشرى أن يستخدم صيغا مختلفة فى القسم بالله فكان يقول مثلا : أقسم بالله ثلاثا .. وحق ذات الله العلية .. قسما بذات العزة والجلال .. وكان إذا استعمل أحد هذه الاقسام فى أول الليل ظل يستعمله إلى آخر الليل ..

وفى إحدى الليالى لاحظ حافظ أن عبد العزيز البشرى استعمل كل صيغ الأقسام .. فسأله : أيه الحكاية ؟ هوه مفيش « يمين » نوبتشى الليلة .. !

وبين الشخصيات التى لمعت فى مجال النكتة ولم تكن لها صفة سياسية أو فكرية ، المعلم دبشة الجزار والأسطى حسين الترزى ..

● كان حسين يسير فى الطريق على قدميه فلمحه أحد أصدقائه وكان يسوق عربته الخاصة ، ودعا حسين إلى الركوب معه ليوصله إلى المكان الذى يريده ، وكانت العربة قديمة فقال له حسين : ما أقدرش . علشان مستعجل ! ..

وزار دبشة إحدى الفنانات فى دارها فوجد عندها رمانا وأبدى إعجابه بالرمان فقالت له : افرط لك رمان يا دبشة ؟ فقال لها : فرطى لى .. فى عرضك !

● وقابل سليمان نجيب إحدى السيدات فى ميدان سباق الخيل فسألها عن اسم الحصان الذى لعبت عليه ، فقالت له : إذا قلت لك اسم الحصان فهل تشاركنى عليه ؟ فقال لها سليمان : أنا موش عاوز أشاركك .. أنا عاوز أشارك جوزك !

* * *

فى هذا الكتاب أكثر من طراز للنكتة وبعض هذه النكت يعتمد على المفارقات ، وبعضها يعتمد على المبالغة ، وبينها نكت تعتمد على الجناس والتوريه واللعب بالألفاظ ، وهى كلها تعطى صورة صادقة عن النكتة المصرية ..

بين الشخصيات التى تعرض لها الكتاب شخصيات تجيد النكتة القاء ولاتجيدها كتابة .. مثل محمد البابلى ومحجوب ثابت وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى ..

* * *

كان البابلى مفكرا على درجة عالية من الثقافة .. وكان يجمع بين ترف الحياة ، وترف الذهن .. وكان يتحدث بأسلوب لاذع أنيق ، ولكنه لم يحاول أن يسجل هذا الأسلوب على الورق ..

وكان محجوب ثابت يجنح فى كتابته إلى تصنع الجد ، ويستخدم فى مقالاته السياسية شعارات حماسية وطنية ، وكان حريصا على أن يبدو من خلال ما يكتبه متجهم الوجه ، مقطب الجبين !

وكان حافظ يبلغ القمة فى التعبير عن النكتة إذا القاها ، أو عبر عنها بالشعر الخفيف ، وكم له فى هذا المضمار من أشعار لم يتضمنها ديوانه المطبوع ، ولكن طريقته المعقدة فى الكتابة كانت تخنق روح النكتة ..

وكذلك كان عبد العزيز البشرى .. فإن أسلوبه الكتابى يعتمد على جزالة اللفظ ، وهذا الأسلوب يحجب الجمال الذى امتاز به أسلوب البشرى عندما يطلق نكتة ، أو يحكى حكاية ..

وكان المازنى يجيد السخرية إذا كتب ، ولم يكن يعرف كيف يقول النكتة ولا كيف يرويها عن غيره ..

أما عبد الله النديم وحسين شفيق المصرى ، فكلاهما كان يحسن التعبير عن النكتة بالكتابة ، والزجل ، والكلام ، والشعر الماجن ، والشعر الرصين ..

* * *

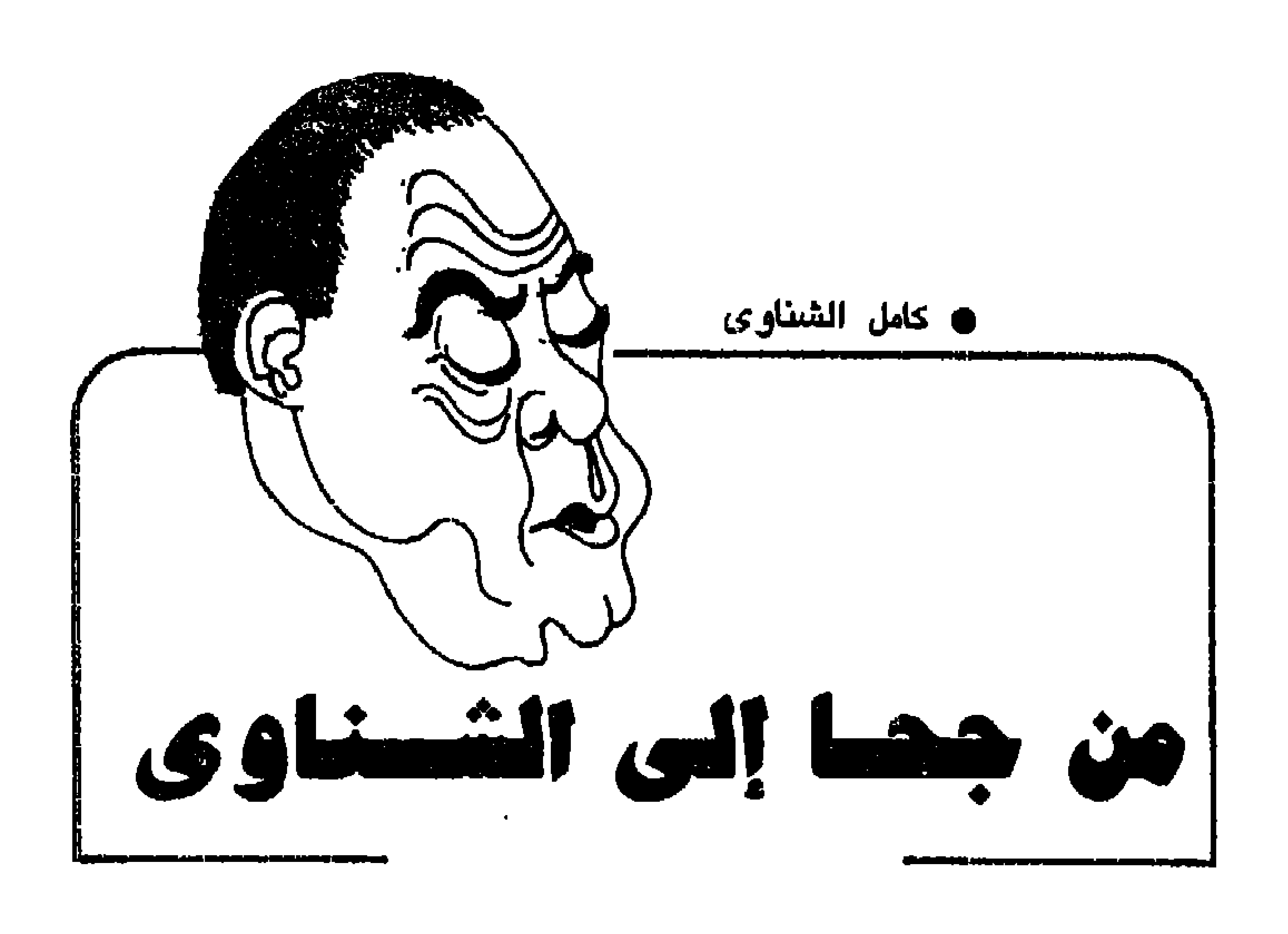
لقد كان مفروضا أن أتعرض هنا لدراسة النكتة ما هى ؟ وما الفرق بينها وبين الفكاهة ، والطرفة ، والملحة ، والدعابة ، والسخرية ، والقفشة ، والقافية .. وهل تأثرت بحضارة العرب ؟

واى النكت أشد أثراً : النكتة المسموعة ، أم النكتة المكتوبة ، أم النكتة المرسومة ؟

ولكن مثل هذه الدراسة لا يتسع لها الحيز المخصص لمقدمة كتاب .. ثم يبقى أن ما كتبته ليس مقدمة ، ولا تمهيداً ، ولا تعريفا .. وإنما هو مجرد مساهمة بكلمة صغيرة ، فى كتاب غير صغير !

كامل الشناوى

محتـــويات الكتـــاب



■■ الحقيقة .. أن هؤلاء الرجال كانوا يضحكون الناس والعبرات تخنقهم ، ويشيعون الأمل واليأس يكاد يقتلهم . ويضحكون بالشفاه وفى القلوب حسرة . ومات أغلبهم حزينا مهموما بعد ان ترك خلفه ابتسامة مضيئة .. على كل الشفاه .

من هم هؤلاء الظرفاء ؟ الذين أشاعوا البهجة فى نفوس معاصريهم ، بل وفى نفوس أبناء الأجيال التى جاءت من بعدهم . وكيف أكتب عنهم ؟ ومن أى زاوية أتناول سيرهم الحافلة وقصصهم الغريبة العجيبة الحافلة بكل الألوان ؟

أبـــو الظــــرفاء

يقول البعض أن هؤلاء الظرفاء ـ على مر العصور ـ منذ أن نسج خيال الناس المكدودين قصة « جحا أبو الظرفاء » ليتلهوا بها وليضحكوا منها وعليها ، كانوا مجرد جماعة من المهرجين ، عاشوا وماتوا ، ومروا على أرض البشر دون أن يتركوا خلفهم أثراً .

ولكن ، هل هذا صحيح ؟

الواقع يصفع هذا القول على قفاه ، فبعضهم ـ بعض هؤلاء الظرفاء ـ قاد الجماهير وأشعل نار الثورة ، واقتحم تاريخ البطولة من أوسع أبوابه ، ومن هؤلاء مثلا الزعيم الظريف عبد الله النديم .

ويقول البعض الآخر أن هؤلاء الظرفاء كانوا فى مجموعهم من دود الأرض الذين سحقتهم الأقدام على الطريق فتعلقوا بدنيا الرغد والثراء والشهرة العريضة ، واقتحموا هذه الدنيا العجيبة متطفلين يضحكون الأغنياء والوجهاء والمشهورين ، وأن دورهم فى الحياة لم يكن يزيد كثيرا عن دور « الأدباتية » و « القرداتية » واللاعبين على الحبال ..

ظــــرفاء جبــــابرة

ولكن الواقع يعود فيكذب هذا الزعم أيضا ، فمن بين هؤلاء الظرفاء من كان يجمع بين العلم والشهرة ، ومن هؤلاء الدكتور محجوب ثابت ، ومنهم العملاق فى دنيا الأدب كحافظ ابراهيم والشيخ البشرى .

ومنهم من تولى منصب الوزارة وينحدر من عائلة عريقة يضرب أصلها الطيب فى بطن التاريخ إلى غور سحيق .. وأقصد به المرحوم حفنى محمود .

ونظرة خاطفة إلى هذا الصف الطويل من الرجال الظرفاء فى العصر الحديث تجعلنا نهمل ما يقوله عنهم أصحاب العقول والألسنة الجافة . وعلى هذا الأساس ستكون نظرتنا إليهم عندما يأتى دور كل منهم لنؤرخ عنه ..

والذى أود أن أذكره الآن للقراء ، أننى بعد بحث طويل فى تاريخ هؤلاء الرجال خرجت بحقائق مشرقة ومريرة معا !!

عبــــد الله نـــــديـــــم

من هذه الحقائق مثلا أن زعامة عبد الله النديم قد انصهرت فى البداية ـ بداية حياته ـ فى هذه المهنة التى احترفها طويلا .. مهنة الظرف ، فهى المهنة التى قادته إلى المقاهى الحقيرة الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء الاسكندرية العتيقة . وجعلته يخالط الحمالين والنشالين وأصحاب المزاج الذين يسخرون بكل شىء ومن كل شىء سخرية مرة موجعة كأنها السبياط تجلد ظهر المجتمع الذى عاشوا فيه وأكتووا بأوضاعه المقلوبة .. والشعب المصرى يحب النكتة ويطرب لها ، ويستخدمها كسلاح حاد يطعن به فى غير هوادة ولا شفقة كل الأعداء الذين يحيطون به ويسدون عليه السبل نحو الارتقاء .

ولكأن عبد الله النديم كان يعرف بالحاسة المجهولة التى يتميز بها كل زعيم ، انه عن طريق زعامته فى النكتة يستطيع أن يتزعم الجماهير ويدفعها دفعا نحو الثورة .. وقد استطاع النديم أن يتزعم الشلل التى كان يجالسها فى المقاهى الحقيرة فى صباه ، وكأنها كانت تجربة خطيرة فى حياته أهلته لتزعم الشعب كله فى ثورة عرابى .

والذى يقرأ خطب النديم اليوم التى كان يلقى بها صباح مساء أبان الثورة يعجب لهذا القدر العجيب الذى جعل الرجل الزعيم يستخدم مواهبه الأولى فى الزعامة . فتراه لاينسى النكتة وهو يخطب فى الجماهير . وسنعود عند كتابة سيرة النديم الظريف إلى توضيح هذه النقطة بالذات التى أغفلها المؤرخون جميعا عندما تعرضوا لسيرة هذا الرجل العظيم ..

غلطة طه حسين

هذه حقيقة .. وهناك حقيقة أخرى . وهى أن الناس أصدروا أحكاما غاية فى البعد عن الحقيقة ضد هؤلاء الرجال . فوصفوا حافظ ابراهيم بأنه كان يتعمد إضحاك الأثرياء والباشوات ليفيد منهم . وهى غلطة كما قلت فظيعة وقع فيها فيما بعد أستاذنا الدكتور طه حسين عندما كتب مقالا عن حافظ قال فيه هذا المعنى منذ شهر . وكان المفروض أن يكون الأديب متجهم الوجه يحتل فمه أكليشيه من الاحتقار للناس ، فلا يضحك إلا بقدر ولا يطرب إلا بمقدار .

هذه الحقيقة المرة لا تجد لها مثيلا فى بلاد أخرى . فلم نسمع بعد أن أحداً فى انجلترا وصف برنارد شو بأنه مهرج . بل انهم اتخذوا من تهريجه هذا دليلا على العبقرية . وكذلك كان الحال مع أوسكار وايلد ، الأديب الذى قضى

حياته كلها وهو يضحك على موائد العشاء والشاى فى قصور لندن .. ولم يقل واحدمن الانجليز من معاصريه أو من الذين جاءوا بعده أن أوسكار وايلد كان يتعمد إضحاك الناس ليكتسب منهم . من أن الثابت فى التاريخ أن أوسكار وايلد كان فقيراً ، وأنه اضطر للزواج من إحدى النبيلات الدميمات ليضمن لنفسه عيشا مستقرا . أما الويسكى والحفلات الصاخبة ـ هكذا يقول تاريخ أوسكار وايلد ـ فقد كان شيئا مضمونا لدى الأصدقاء ..

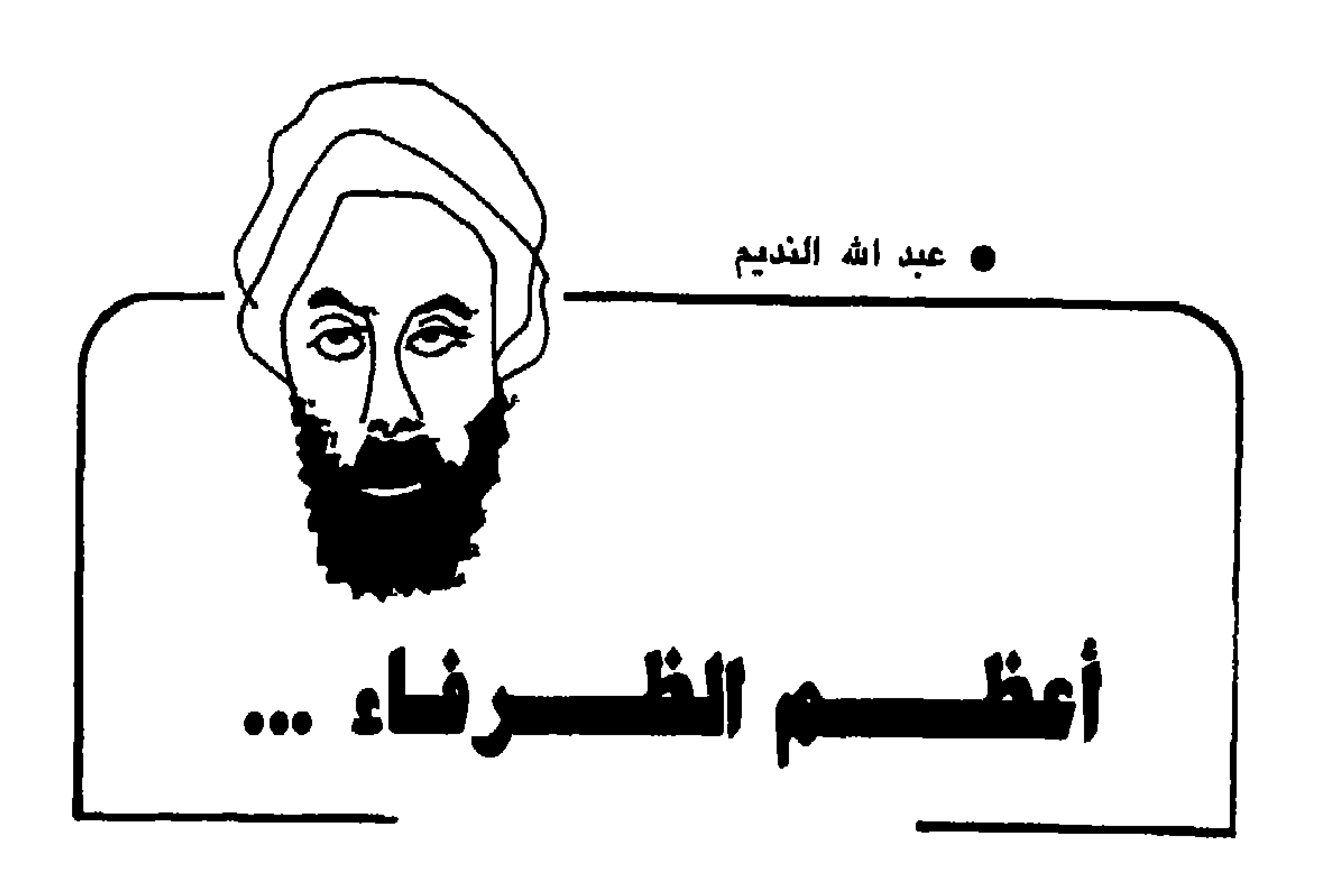
ابتســامات ودمـوع

والحقيقة المرة الأخيرة ، أن هؤلاء الرجال كانوا يضحكون الناس والعبرات تخنقهم ، ويشيعون الأمل .. واليأس يكاد يقتلهم ، ويضحكون بالشقاوة وفى القلوب حسرة . ومات أغلبهم حزينا مهموما .. بعد أن ترك خلفه ابتسامة مضيئة .. على كل الشفاة .

على أية حالة لقد ذهب هؤلاء الظرفاء الكبار بعد أن تركوا خلفهم أثرا كبيراً ، فبعضهم استطاع ان يغير تاريخ بلاده ، والبعض الآخر استطاع أن يبث الأمل فى نفوس الناس ، الأمل بمستقبل باسم مشرق ، وغدا أعظم حالا من اليوم ، وهى مهمة عظيمة لم يقم بأعظم منها العباقرة الكبار الذين غيروا وجه التاريخ .

الظـــرفاء الأحيـــاء

ولن ننسى ونحن نكتب عن تاريخ الظرفاء الأحياء منهم . ولن ننسى أيضا المرحوم أبو المجد ، الشاب الذى مات قبل الأوان . ومات وعلى شفتيه ابتسامة وفى نفسه مأساة .



أعظم الظرفاء ...

■■ *اللهم اكتبنى عندك فى أم الكتاب ، انجليزيا ، فإن لم يكن يا ذا المن ، فاكتبنى عندك خواجا ، فإن لم يكن يا ذا الإكرام ، فاكتبنى عندك خديويا .. أو باش أغا .. أو أغا !!!!*

عبد الله النديم

وجدت نفسى فى حيرة شديدة عندما بدأت أكتب قصة عبد الله النديم .. فقصة الرجل ذائعة ومعروفة ، فهو من أحب زعماء الثورة العرابية إلى الناس .. لأنه كان يمثل المصرى الأصيل ، صاحب الروح الخفيفة ، والنكتة الحلوة .. ثم أن عبد الله النديم أكثر من شخصية ، وأكثر من رجل ، حتى حياته نفسها كانت تختلف عن حياة الآخرين ..

بداية حزينة

لقد بدأت حياته حزينة .. فتح عينيه على الحياة ووالده النجار الفقير يخوض فى بحار من الهم ومن الحزن ..

كانت الحالة فى مصر سيئة للغاية .. وحثالة خواجات أوروبا يعبرون البحار على بواخر متشردة ، ليصبحوا بعد قليل سادة وأثرياء .

وفتح النديم عينيه على الحياة فى المدينة التى هاجر إليها أبوه .. مدينة الاسكندرية ليرى كل شىء متناقضا يثير السخرية ويثير الاشمئزاز ، خواجات ينعمون بكل شىء ، وفقراء يشاركون الدجاج « النبش » بحثا عن الطعام ..

والخواجات لا يهدأون لحظة عن النهب وعن السلب ،والفقراء يتفرجون على الموكب دون ضجة .. لم تكن هناك مقاومة فلم تكن فى مصر هيئات ، وليس فيها نقابات ..

والمصريون جميعا يعيشون فرادى كل منهم مشغول بالبحث عن طعام يومه ..

هكذا كان الحال والنديم طفل صغير يجوب أزقة حى كوم الدكة بالاسكندرية .. وعندما دفعه أبوه إلى المدرسة لم يجد النديم فيها شيئا يثيره .. كانت المدرسة فى نظره عدة مقاعد صماء ، ومدرس عجوز يلقى على التلاميذ بكلمات ميتة ، لا روح فيها ولا حياة .. فهجرها هى الأخرى غير آسف عليها ليدخل مدرسة أعظم وأرحب وأكثر ضجة وأكثر حياة .. هى مدرسة الحياة ..

بين الأزقــة والمقــاهــى

وفى المقاهى الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء الاسكندرية وحول الميناء وجد عبد الله النديم ضالته ، حيث يأوى كل مساء عشرات من الحمالين والسقايين ، بل والنشالين يشربون أقداح الشاى ويغرقون همومهم فى دخان الكيوف .. ثم يقضبون ليلهم كله فى الضحك والسخرية بجميع عباد الله وبالأوضاع المقلوبة التى تجعل من بعض الناس سادة ، ومن البعض الآخر عبيداً لايجدون ما يأكلون ..

وكان النديم يحوم حول هذه المقاهى كالفراشة يستمع أول الأمر إلى ما يقوله هؤلاء الناس المكدودون ثم يشاركهم السخرية بعد ذلك بكل شىء .. السخرية بهم وبالخواجات ، وبنفسه إذا لزم الأمر .. فإن اهتزاز الأوضاع فى زمانه لم يترك فى نفسه أثرا لاحترام أحد ..

أول مراتــب الشــهرة

واشتهر النديم فى المقاهى المنتشرة فى المدينة وما حولها .. وطار صيته حتى لم تعد هناك نكتة جديدة

ألا وينسب أمرها للنديم ..

ولقد محا الزمن فيما محا نكت النديم فى ذلك العصر الأول من صباه ، ولم يبق منها سوى النزر اليسير ، ولكنها تدل دلالة قاطعة على أن النديم لم يكن محترف نكتة لوجه النكتة فقط ، بل كان يعنى من ورائها أموراً عظيمة ، بل هى أن شئت الدقة ، كانت بداية الثورة على كل الأوضاع المهتزة .

نكتـــة ســـياســـية

فمثلا كان الخواجات فى ذلك العصر فوق القانون .. لم يكن يجرؤ أحد على سجن الخواجا أو حتى إدانته .. وفى هذا الصدد قال النديم أن خواجا وقف أمام القاضى فسأله :

— أنت قتلت الراجل ده يا خواجا ؟

ورد الخواجا :

— لا يا خبيبى .. هو « كتل روخه » !

وهتف القاضى منشرحا)

— براءة ..

وجاء دور أحد أبناء البلد ، فسأله القاضى :

— أنت ضربت الراجل ده بالسكين ؟

ورد ابن البلد فى ضراعة :

— لا والنبى يا سيدى القاضى ..

وسأله القاضى من جديد :

— أمال يعنى هو اللى ضرب نفسه ؟

وأجاب ابن البلد :

— أيوه يا سيدى

— وعاد القاضى يقول :

— غريبة .. فيه حد يضرب نفسه .. انت اسمك أيه ؟

ورد ابن البلد الذكى فى سرعة :

— اسمى .. مخمد خسين .! ..

والمعنى واضح طبعا ومفهوم .. وهو يدلك إلى مدى كانت نكتة النديم تحمل مضمونا عظيما ، لايستطيع مقال طويل أن يظهره بهذه الصورة الرائعة ..

عـامـل تلغـــراف

المهم أن النديم الذى كان يلقى بالنكتة صباح مساء كان لايجد ما يأكله .. والنكتة لا تطعم أحداً ، والشعر والزجل لايغنى من الجوع ، فقرر أن يتعلم حرفة ، وأصبح النديم بعد قليل عامل تلغراف .

ثم تشاء الأقدار أن يعين النديم فى سراى والدة باشا عامل تلغراف ، وهكذا دخل النديم القصور .. حيث الصمت الكئيب ، والعادات المضحكة .. والملابس المزركشة ..

ولم يكن النديم على استعداد لأن يقبل حياته الجديدة .. صحيح أنه ضمن العيش المستقر ، ولكن من قال ان الرجل صاحب الرسالة ينشد الاستقرار فى العيش ؟ ..

الأغـــا ... باشـــا

كان فى القصر رجل اسمه أغا باشا .. كان سيد القصر غير منازع ، والويل لن يغضب عليه ، والسعادة لمن يرضى عنه .. وكان منظر الأغا يدعو إلى الضحك ، كان طويلا وبدينا إلى حد الإفراط ، وكرشه المستدير يبرز أمامه ، كأنه الصق بالصدفة فى هذاالجسم الضخم .. كأنه جسم فيل ..

و « حبكت » النكتة على النديم فأنشد فى الرجل زجلا ظريفا .. غاية فى النكتة والسخرية .

شوف الأغا فى النغنغا   زى التيران فى المزرعة
لو كنت أنا صاحب الأغا   كنت اشتريتله بردعة

وسمع الأغا زجل النديم فأمر بطرده من القصر ، وأمر أيضا بأن يضرب بالقباقيب حتى يغمى عليه !

وهكذا خرج النديم من القصر والدماء تسيل من رأسه ومن أنفه .. إلى غير رجعة ..

الضـــاحـك البـــاكى

وعاد النديم إلى الحياة الواسعة العريضة يضحك الناس ويسليهم ويضمن غذاءه .. ولكنه يضحكهم على واقعهم البائس المر .. على أحوالهم المريضة والأوضاع الكسيحة المحيطة بهم . ويشير فى جرأة إلى الأعداء الذين يكبلون حرية الناس ، ويعوقون تقدمهم .. استمع إليه يقول :

— شاهد خفير لصا يهبط من نافذة ومعه ملابس ، ويهتف الخفير فى اللص :

— مين اللى هناك ؟

— أنا خواجا ..

— لا مؤاخذة .. كنت أحسبك مصراوى ..

هكذا كان النديم يهوى بلسانه كالمطارق الضخمة ليحطم كل أعداء الشعب ، ليقول للناس أفيقوا ييها اللاهون عن ركب الحياة .

نكتـة تاجـر الخـردوات

وعاش النديم تلك الفترة ينزل ضيفا على العمد والأعيان يأكل عندهم ، ويعقد فى منازلهم حلقات السمر التى تستمر عادة حتى الصباح .. وهو ينتقل من بلدة إلى أخرى وصيته يسبقه ونكته تطير عبر الحقول الى القرى والكفور فيضحك الفلاحين على الخواجات وعلى المصريين أيضا ..

ثم يستقر به المقام في المنصورة .. وله مهنة في يده هذه المرة .. تاجر خردوات . ولكن تاجر الخردوات الذى يحب النكتة لا يستطيع أن ينجح فى بيع الخردوات ، فهو يسخر بالزبائن ويسخر ببضاعته .

« واحد زبون عاوز يشترى فانلة بياقة »

واحد فلاح امبارح طلب منى عمة صيفى » .

« واحد خواجة اسلم ولف شال على البرنيطة » .

ويفلس النديم ، ويجلس فى المساء أمام الدكان الذى أصبح خاويا ، ويشير إلى الجمع الذى يلتف حوله ويقول :

— تعرفوا ، أن أحسن صنف ماشى فى الخردوات أيه ؟

ويصيح الجمع المحتشد :

— إيه ؟

ويجيب النديم :

— اللبان ..

وكانت عادة عند تجار الخردوات أيام زمان هى توزيع قطع اللبان مجانا على الزبائن .. وكان النديم يوزع اللبان على كل من يلقاه ..

مـع الأفغـــانى

ثم تنشب الثورة .. ولكن قبل نشوبها بزمن قصير ، مر على أرض مصر رجل كالطيف ، قوى كأبطال الأساطير ، حاد كالسيف .. اسمه « جمال الدين الأفغانى » وكان عبد الله النديم قد عرف الطريق اليه يستمع فى اهتمام إلى ما يقوله هذا الرجل العجيب .. عن الحرية ، عن النضال ، عن الكفاح ، عن احتمال الأذى والموت فى سبيل مبادىء عظيمة .. ثم تختطف السلطة المذعورة الرجل العظيم لتلقى به خارج الديار منفيا .. ولكنه قد أدى الرسالة ، ووضع بذور

الثورة فى قلوب الرجال الذين سيحملونها بعد ذلك ، وكان منهم الظريف الأديب ، عبد الله النديم ..

الثــــورة

ولكن من كان يتصور أن الثورة ستجتاح أرض مصر كلها بعد ذلك بأعوام .. وأن المصريين سيهبون بالهراوات والعصى والبنادق القديمة القليلة التى لديهم ليطالبوا بالدستور والبرلمان وبخلع الخديو الخائن .. ومن كان يظن كذلك أن هذا الضابط الفلاح الطويل القامة ، المهيب المنظر سيهب على رأس فرقته ليعطى للطغاة درسا .. ثم من كان يظن أن هذا الزجال الذى لا مهنة له ، والذى فشل فى الوظيفة وفشل فى الدراسة ، ونجح فى النكتة ، هذا المصرى الأصيل ، عبد الله النديم ، من كان يظن أنه سوف يحمل على عاتقه أخطر وأشرف مهام الثورة ، وهى مهمة إثارة الجماهير ودفعها دفعا نحو الثورة ؟ !

اللعنــــة للمتفــرج

ولكن هذا هو الذى حدث ، فلم تكد الثورة تتحرك ، حتى تحرك عبد الله النديم يخطب الناس فى حماس ويكتب المقالات ليعلمهم :

« أيها المصريون ، لا حياكم الله ولا نجاكم ، ما دمتم تعيشون كالسائمة تأكلون من حشائش الأرض وتقبلون أياديكم المشققة ظهرا وبطنا ..

« أيها المصريون ، شموا رائحة أجسامكم ، إنها نتنة قذرة والنيل يجرى بينكم ، استمعوا إلى صرخات أمعائكم ، وواديكم يملؤه الخير ، انصتوا إلى صوت الله يلعنكم مع أنكم حفظة كتابه وحملة رسالته ..

« أيها المصريون ، لعن الله من يكره الحرية ، لعن الله من تعف نفسه عن أطايب الطعام ، لعن الله من يكره الراحة ، لعن الله من يقعد متفرجا ، لعن الله من لايتبعنا » .

وتصيح الجماهير ثائرة :

تحيا الثورة ، تحيا الثورة ..

إذن .. فهذه هى الثورة .. والجماهير التى رآها النديم فى صباه تشرب الشاى وتدخن الحشيش وتضحك من الأعماق ، يراها الآن تحمل الفؤوس وتطلق البارود وتهتف بحياة الثورة ..

فى الميـــــدان

وتنشب المعارك التى تمناها النديم طويلا ، ويسقط الكثيرون صرعى ، ويراه أحدهم مرة يسير بين جثث القتلى الانجليز .. فيسأله :

— ماذا تفعل عندك يا عبد الله ؟

ويرد النديم على الفور :

— أتأكد من موت هؤلاء الناس ، ليطمئن قلبى ، فأنا أخشى أن يكون عزرائيل خواجا ..

حتى فى ساحة القتال ، لا ينسى النديم النكتة ..

سميحة الشـتوى

ويتزوج أحد أصدقائه خلال الثورة بفتاة زنجية من جنوب الوادى .. ويسأل أحد الأصدقاء عن اسم الزوجة ، فيقول النديم : أظن اسمها سميحة .

ويستفسر الصديق :

— سميحة أيه ؟

ويرد النديم :

— لازم سميحة « الشتوى »

وأخيرا ، تنتهى الثورة ، ويستسلم عرابى وبقية رجال الثورة اضطرارا .. ولكن أين طويل اللسان ، صاحب النكت التي آذت أذن الخديو طويلا ، أين هو هذا المخلوق لتنكل به السلطة كيفما تشاء ..

نـــديم يخلف النـــديم

كان قد هرب مع خادمة بعد أن تنكر في زي أحد المشايخ ، وراح يجوب القرى ويعبر الحقول فيتلقاه الأصدقاء بفرح شديـد . أصبح النـديم ، اليماني ، والمغربى ، والزعيم الذى هز المنابر والقلوب ، يقتحم الأسواق لينشد زجلا أو يلقى بنكاته .. ويضحك الناس ويقول بعضهم لنفسه :

— رحم الله النديم ، لقد أعاد هذا الرجل ذكراه ..

لم يدر أحد وقتئذ ، أن هذا الشيخ الذى هرم وييس ، هو عبد الله النديم نفسه ..

يفاجئه رجل مرة فيسأله عن اسمه ، فيجيب النديم على الفور دون وعى :

— أنا النديم .. ثم يستدرك على الفور :

— أنا النديم الأدياتي ، وأدبى أحسن م الحاتي .. ويظنه الرجل مجنونا فينصرف .

يعـــود للثـــورة

ثم يقبض على النديم بعد أعوام طويلة ، ثم ينفى ، ثم يعود ، فيجد أن كل شىء قد عاد إلى مكانه . الخونة فى كراسى الحكم ، والوطنيون تدلوا من حبال المشانق ، وبعضهم تأكله الحسرة فى المنفى ، فيهب النديم من جديد ، وقلمه فى يده هذه المرة ، ولسانه يسبق قلمه .. وكانت ثورة جديدة ..

ويهب الانجليز ومن خلفهم الخديو ليلقوا به خارج مصر ، فإنه الرجل الذى بقى من زعماء الثورة العرابية ولم تستطع الأحداث أن تسكت لسانه ..

ويخرج النديم إلى تركيا ، وقد ترك خلفه دعاء على طريقة دعاء نصف شعبان والناس تقرأه فى المقاهى ، وحول حلقات الدخان وهم يضحكون :

اللهم يا ذا المن ولا تمنى إلا البشر والإسعاد .. اللهم اكتبنى عندك فى أم الكتاب ، انجليزيا ، وإذا كان عسيراً عليك يا ذا المن ، فاكتبنى عندك خواجا ، فإذا لم يكن مقدوراً ياذا الإكرام ، فاكتبنى عندك خديويا ، فإذا لم يكن هذا يسيرا أيضا ، فاكتبنى عندك باشا أغا ، أو أغا ، اللهم لا تكتبنى عندك مصريا ، ولا فلاحا انك سميع مجيب الدعاء يا رب العالمين .

وفى تركيا مرض النديم ، فقد أجهده النضال الطويل ، وعذبه المنفى ..

وراء نعشـــــه

وتحركت جرثومة السل تنهش فى صدره ، وتنهش فى كيانه ، ولكنها لم تستطع أن تسكت لسانه ..

ومات النديم فى الثامنة والخمسين من عمره ، وخرج بعض الرجال الذين كانوا يعرفونه يشيعون جنازته وسأل رجل كان يمشى فى الطريق :

— من الذى فى النعش ؟

وأجاب شيخ مهدم عجوز كان يسير فى المقدمة .. وعبرات تنحدر على خديه .. اسمه جمال الدين الأفغانى :

— انه عبد الله النديم ..

ومط الرجل السائل شفتيه .. ولم يفهم شيئا .



الباسم العبوس

■■ ولكن حافظ رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق كان ظريفا ، وكان يضحك من الأعماق ويسخر من كل شيء حتى من وجوده .

حافظ ابراهيم

قال كاتب القصة العالمى انطون تشيكوف : « من لا يرغب ولا يأمل ولا يقلق لا يستطيع أن ينتج شيئا عظيما » . وكانت أبرز صفات حافظ ابراهيم .. القلق واعظم انتاجه .. حياته ! ولقد بدأت حياته القلقة الرائعة فى عام ١٨٧٢ حين ولد فى عوامة كان يسكنها أبوه المهندس المشرف على قناطر ديروط .

وكان أبوه ابراهيم أفندى فهمى مصريا صميما وامه تركية من عائلة متوسطة فكان القلق يجرى حتى فى دمه . ويموت أبوه وهو فى الرابعة . فيتعهده محمد أفندى نيازى خاله . ويدخله المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم المبتديان ، ثم الخديوية ، ثم يهجر حافظ الدراسة ، وقد امتلأت نفسه بغضا للنظام الذى تفرضه المدارس على طلاب العلم . ويسافر به خاله إلى طنطا . وهو فى طنطا لا يعمل شيئا ولا يكسب شيئا . إنه يدور النهار كله والليل كله أيضا مع طالب فى الجامع الأحمدى اسمه الشيخ عبد الوهاب النجار يغشيان المقاهى المتواضعة ، وحلقات الذكر ، ويقرضان الشعر أحيانا ، ولكنه شعر ساذج بارد كحياتهما الفارغة . ويضيق به خاله ، ويعلن له سخطه على الحال التى آل إليها . فيضيق به هو الآخر ، ثم لا يلبث أن يهجره . تاركا له ورقة صغيرة تحوى بيتين من الشعر ..

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهية

فـــافـــرح فـــإنى ذاهب   متـــوجـــه فـــى داهيـــة

شعر فيه سذاجة ، ولكن فيه مرارة ، وهى أبدا طابع شعر حافظ ابراهيم .

روب المحـــــاماه

أصبح حافظ ابراهيم بلا عمل ولا مأوى . وهو أحيانا يتضور جوعا فلا يجد ما يأكله ، ويتمنى أحيانا أن يموت .

عجبت لعمرى كيف مد فطالا

ومـا أثـــرت فيـــه الهمـــوم زوالا

فللموت خير من حياة أرى بها

ذليـــلا وكنت السيـــد المفضـــالا

ولكن هل يفقد الحيلة . ان مهنة المحاماة مفتوحة الأبواب للهاربين من المهن ، والفاشلين فى الحياة . وهو فاشل وهارب معا وأيضا طويل اللسان . ولم يلبث أن أصبح محاميا ، ولكن المحاماة تحتاج إلى صبر ، وهو قلق ، وتحتاج إلى بحث ، وهو يمقت البحث ، وتحتاج أخيرا إلى نظام ، فيتركها غير آسف عليها ، ماذا بقى إذن أمامه . لا سبيل إلا الكلية الحربية .

— ولا يدرى أحد السبب الذى دفعه إلى ارتياد هذا الطريق . وأغلب الظن أن تأثره بقصة حياة محمود سامى البارودى هو الذى دفعه إليه ، المهم ان حافظا دخل الكلية الحربية وأصبح ضابطا ، وعمل فترة فى الجيش ثم فى البوليس ، ثم سافر بعد ذلك إلى السودان فى الحملة التى كانت بقيادة كتشنر . والشاعر الرقيق الإحساس أصبح الآن محاربا وفى يده سيف . وهو يكره الحرب . خصوصا إذا كانت الحرب داخل أدغال موحشة ، وصحراوات مجهولة الحدود . ويبكى حافظ فى السودان .. يبكى شعرا فيقول :

ومـا أعـذرت حتى كـان نعلـى
دمـا ووسـادتى وجـه التـراب
وحتى صيـرتنى الشمس عبـدا
صبيغـا بعـدمـا دمغت أهـابى
وحتـى قلـم الإمـلاق ظفـرى
وحتـى حطـم المقـدار نـابـى
متى أنـا بالـغ يا مصـر أرضا
اشـم بتـربـهـا ريـح المـلاب

ثم جاءه الفرج بعد ذلك . فقد تمردت فرقة من الجيش وحوكم ضباطها وأحيلوا على الاستيداع .. وكان عددهم ثمانية عشر ضابطا وكان من بينهم حافظ ..

زواجـــــه

وعاد حافظ إلى مصر يبحث عن عمل . عرض نفسه على جريدة الأهرام ولكنه لم يوفق . وكانت شهرته قد امتدت إلى مختلف الأوساط . وأصبح يغشى مجالس الشيخ محمد عبده ، وغيرها من مجالس العظماء . وكان له من جزالة الصوت وحسن الإلقاء وجيد الشعر .. والنكتة ما أفسح له مكانا فى الندوات . وفى هذه الفترة تزوج حافظ ابراهيم ولكن زواجه لم يدم طويلا . إذ هجر بيت الزوجية بعد أربعة أشهر ثم لم يعد إليه بعد ذلك حتى نهاية حياته التى امتدت ستين عاما .

البكـــويّة

وفى خلال هذه الأعوام الستين وقعت لحافظ أحداث عجيبة .. أنعم عليه برتبة البكوية ، ثم بنيشان النيل ، وعين بدار الكتب المصرية فلزم الصمت وآثر السلامة .. ولم ينتج شعراً يذكر خلال تلك المدة الطويلة . وكان السبب فى ذلك

خوفه من ضياع الوظيفة ، ولما جاء صدقى إلى الحكم هاجمه حافظ بشدة . ولكنه لم ينشر الشعر الذى قاله فيه . ولكن هذا كله لم يمنعه من أن يكون شاعر الوطنية غير منازع .

اشترك فى الأحداث التى هزت بلاده بقلمه ، وكان من خير شعره ما قاله فى حادث دنشواى . وفى رثاء مصطفى كامل وسعد زغلول . وكان ينتهز الفرص ليصرخ فى وجوه المصريين إن أفيقوا ، وان هبوا ، وكان يبدو متشائما أحيانا ، ولكنه لم يفقد الأمل فى شعبه . كان واثقا من النصر فى النهاية . وهو عندما تمتلأ نفسه يأسا يقول :

فما أنت يا مصر دار الأديب
ولا أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات
كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر وعيش يمر
ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات
فرار السليم من الأجرب

ولكن هذا اليائس المتشائم يعود فيقول لسعد زغلول :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت .
الا تنام وفى البلاد دخيل
عزل ولكن فى البلاد ضراغم
لا الجيش يفزعها ولا الأسطول

* * *

ثم هو يرى البعث بنفسه . لقد هبت الجموع النائمة تبحث عن تاريخها . وهى تحث الخطى فى إصرار نحو الفوز ، ويهلل حافظ فرحا مزهوا :

افقنا بعد نوم فوق نوم   على نوم كأصحاب الرقيم

شــاعر الظــرفاء

ولكن حافظ رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق كان ظريفا ، وكان يضحك من الأعماق ويسخر من كل شيء حتى من وجوده . كان يقول ان الحياة محنة ، وأن من الواجب ان نستعين عليها بالابتسام . وحافظ لم يكن يبتسم فقط ، لقد كان يقهقه ، ويحرك نفوس الناس ليضحكوا هم الآخرون .

بـدمـــــه

حدث مرة أن أديبا شابا كثير الكلام كان يغشى مجالس حافظ ، وكان يتحدث دائما عن مغامراته فى عالم الضرب والطعن ، وكيف أنه قتل فلانا وجرح فلانا . وذات ليلة جلس الاديب الشاب يقص على حافظ قصة خلافه مع جماعة من الأدباء ، وكيف انه أقسم أن يضرجهم بالدم وسأله أحد الحاضرين :

— ونفذت وعدك ؟

وأجاب حافظ على الفور :

— طبعا ، وضرجهم بدمه

يبقى ابســطنا

وكان يحضر حفلة موسيقية ، وكان العزف رديئا والآلات عتيقة بالية . وطلب حافظ من قائد الفرقة أن يسمعهم لحنا معينا ، فأجاب المايسترو بأن اللحن الذى يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق . وصاح حافظ على الفور :

— يا سلام ، على كده يبقى انبسطنا .

انا انجلــــيزى

وخلال الحملة السودانية التى كانت بقيادة كتشنر . حدث

أن عاد حافظ إلى المعسكر متأخرا . وصاح الحارس الانجليزى الذى كان يقف عند الباب :

— من هناك ، وكرر النداء أكثر من مرة ، وارتبك حافظ ولم يدر ماذا يفعل . ثم عاد فصاح مجيبا :

— أنا انجليزى يا چورچ .

ومالى جزمة

وكتب مرة إلى جار له يوم زفافه :

أحامد كيف تنسانى وبينى
وبينك يا أخى صلة الجوار
أيشبع مصطفى الخولى وأمسى
أعالج جوعتى فى كسر دارى
وبيتى فارغ لا شىء فيه
سواى وانتى فى البيت عارى
ومالى جزمة سوداء حتى
أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالا
بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف
ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى
وسوف أريك عاقبة احتقارى

نكد الدنيا

وكان يكره شاعرا من شعراء عصره كراهية شديدة وكان هذا الشاعر يتولى منصبا هاما ، وكان حافظ يبدو دائما محتاجا إليه . ولذلك كان يبدى له الود ، وان كان يبغضه فى

حقيقة نفسه . سأله الشاعر مرة عن أعظم الشعراء فى رأيه فأجاب حافظ : المتنبىء ، فسأله : وأعظم ما قاله ، فأجاب :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

ولم يفهم الشاعر طبعا ما يقصده حافظ ابراهيم .

حافظ مات

وكان حافظ يجلس فى مكتبه بدار الكتب حين دخل الساعى ومعه ورقة تحمل اسم زائر ثقيل . وقال حافظ للساعى :

— أنا مش هنا .

ومضت فترة ثم غافل الزائر الساعى ودخل على حافظ مهرولا وقد بسط يده بالسلام :

— صباح الخير يا حافظ بك .

— حافظ بك مش هنا .

وارتبك الزائر ووقف برهة لايدرى ماذا يفعل . وعاد حافظ يقول —

— يا أخى حافظ مات ، حافظ راح فى داهية .. هوه مالكوش شغلة غير حافظ ، دنا بادور عليه بقالى عشر سنين أقعد معاه لوحدى مش عارف .

بوليس

روى له أحد أصحاب الصحف كيف أنه خرج من منزله صبيحة صدور صحيفته ليقف بنفسه على حالة التوزيع وأخذ يروى كيف انه ركب الترام فوجد كل راكب يحمل صحيفة مع التذكرة . وقال واحد من المنافقين :

— وأنا كمان والله النهاردة ركبت الترماى لقيت كل راكب معاه نسخة ما عدا راكب واحد .

وأجاب حافظ على الفور :

— ده لازم بوليس .

ولكن الغريب فى الأمر أن خفة دم حافظ ونكتته الشائقة لم يبد لها أثرا فى شعره . إذ كان هو فى قرارة نفسه حزينا مكلوما يشعر بالوحدة ويحس بالحرمان . ولذلك جاء شعره كله باكيا مريراً ، وأجاد فى الرثاء وفى الوطنية ، استمع إليه يقول بعد مرض طويل :

مـرضنـا فمـا عـادنـا عـائـد
ولا قيـل أيـن الفتـى الألمـعـى
ولا هش طــرس إلــى كــاتـب
ولا خـف لفظ علـى مستمـعـى
سكتنـا فعـز علينـا السكـوت
وهـان الكـلام علـى المـدعـى

الصـــيد الحــرام

ولكن حافظا المغمض العينين على حزنه الدفين ، كان ينتفض أحيانا فيبدو ساخطا على كل ما حوله من ظروف بغيضة . ساخطا على الفقر ، ساخطا على الذل، برما بالظلم الذى لا يدرى مداه .

عـزت السلـعـة الـذليلـة حتى
بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت فى يد الناس كاليا
قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف فى البعـد بدرا
ويظن اللحـوم صيـدا حـرامـا

ثم هو يرى أبناء مصر يسقطون على الطريق والصعاليك الذين يفدون إليها من بقاع الأرض يمرحون كالآلهة فيقول

حافظ :

بنو مصر فى حمى النيل صرعى
يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف نمسى عطاشا
فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى
وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقينا ونحن كرمنا اللـ
ـه بعصر يكرم الانعاما

رجل سلام

وهو أيضا رجل سلام يكره الحرب ، ويكره الطغاة ، ويحب السلام ، وفى عام ١٩٠٤ قبل أن يرتفع صوت واحد يدعو للسلام . يهتف حافظ ابراهيم فيقول :

أساحة للحرب أم محشر
ومورد الموت أم الكوثر
وهذه جند أطاعوا هوى
اربابهم أم نعم تنحر
أشبعت ياحرب ذئاب الفلا
وغصت العقبان والانسر

ثم يقول :

فهل درى القيصر فى قصره
ما تعلن الحرب وما تضمر؟

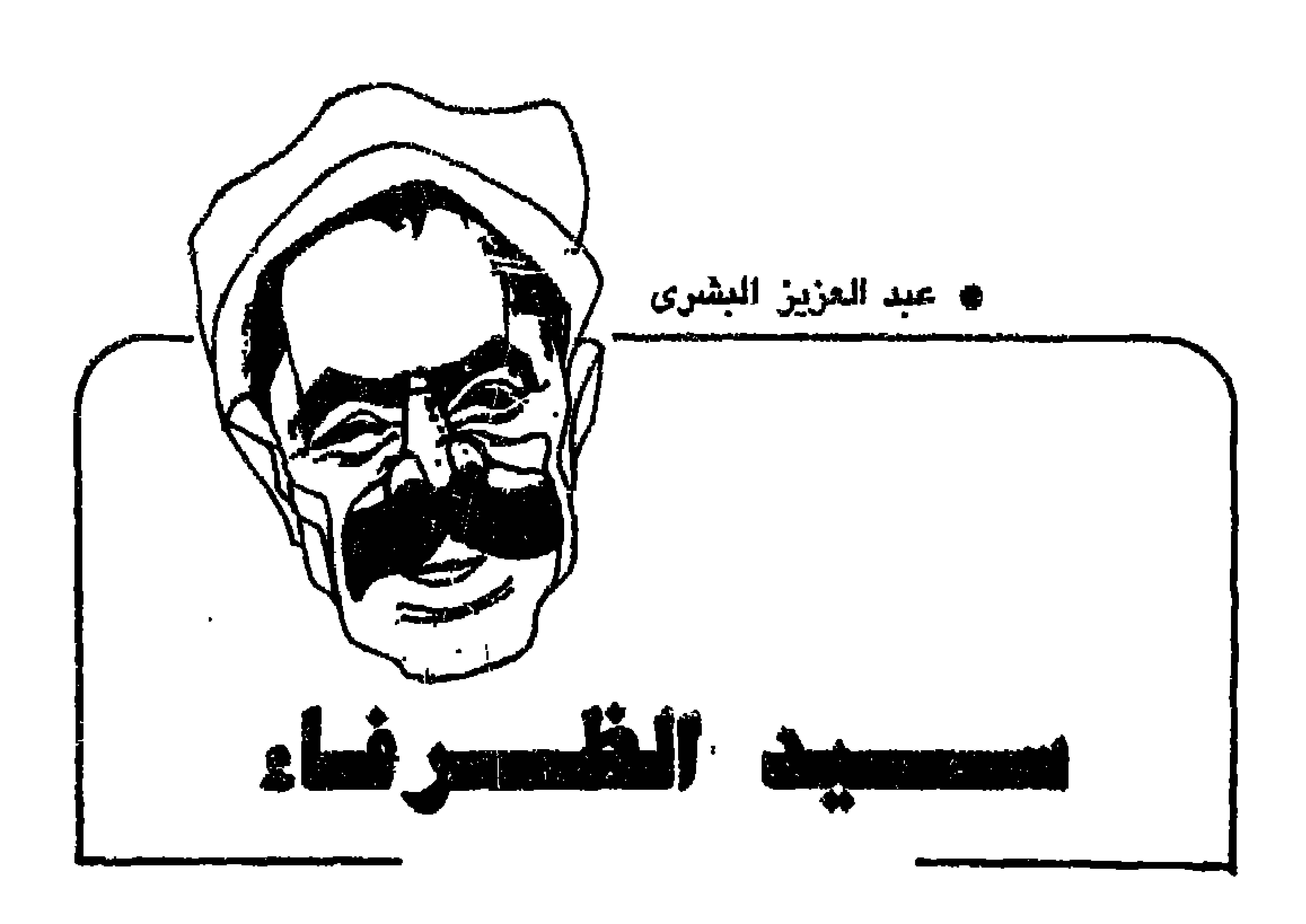
منصف الموتى

وعندما وافاه أجله ، جاءت منيته فجأة ، كان يتعشى مع بعض أصدقائه وهو أشد ما يكون مرحا وبهجة ، ثم شعر بألم شديد فى أمعائه ، وعندما حضر إليه الطبيب كان حافظ قد

مات ، وماتت بموته المنافسة التقليدية التى كانت قائمة بينه وبين شوقى ، فقال شوقى العملاق يرثيه :

قد كنت أوثر أن تقـول رثائى
يـا منصف المـوتى من الأحيـاء

وهكذا انهت صفحة حافظ ابراهيم ، الذى انصف الموتى وأنصف الأحياء .



■■ لم يكن البشرى مجرد ساخر من الناس والحياة ، بل كان فنانا عميق النظرة ، رقيق الإحساس ، وله بحوث قيمة فى الغناء والقراءات والشعر والأدب ، وعاش حياة حافلة .

عبد العزيز البشرى

من هذا المعمم الضئيل الذى يوزع وقته بين بار اللواء . ومجالس الأدب ، والكتابة فى الصحف بأسلوب ضاحك غريب يقطر فلسفة وعمقا وفهما أصيلا لطبائع البشر ودخائل الناس ؟

انه الشيخ عبد العزيز البشرى أحد الذين صنعوا تاريخ الأدب الرفيع فى مصر .. وواحد من أفراد « الشلة » العظيمة النابغة التى نفحها القدر لمصر فى فترة من أعظم فترات تاريخها الحديث شوقى وحافظ ابراهيم ومحجوب ثابت . ولكن عبد العزيز يمتاز عنهم بأنه معمم . وسخريته لاذعة تدمى ولا تجرح . وبديهته حاضرة ، ولسانه كسيف الله المسلول حتى على نفسه ..

يقابله رجل فى الطريق فيطلب منه أن يقرأ خطابا . وكان الخط رديئا إلى درجة لم تمكنه من القراءة فاعتذر للرجل ، وظن الرجل ان الاعتذار لجهل الشيخ فصرخ فى وجهه متعجبا .

— أمال لابس عمة ليه ؟ ..

ونزع البشرى عمامته من فوق رأسه وألبسها للرجل وصاح فيه :

— طيب لما الحكاية حكاية عمة ، اقرأ أن الجواب بقى ..

ويستيقظ من نومه ظهرا على صوت موسيقى منبعثة من بيانو متنقل وأصوات مزعجة لجماعة البلياتشو الذين كانوا

ينتشرون في مصر فى تلك الأيام ، ويلبس أفرادهم الجبة والكاكولا ويدهنون وجوههم بالزفت والدقيق ، ويضعون على رؤوسهم عمائم ، وفتح الشيخ البشرى النافذة وطلب من جماعة البلياتشو أن ينصرفوا ليتمكن من النوم . ولكنهم لم يفعلوا . فطلب منهم بالحسنى أن ينصرفوا مرة أخرى . ولكنهم لم يعملوا بنصيحة الشيخ . ووقف الشيخ البشرى فى النافذة يصيح بأعلى صوته :

— أنت راح تمشى يا جدع والا انزل اضربك قلمين .. ثم يستطرد :

ولا أنزل اضربك قلمين ، الناس تقول ده معاهم .

الأبونيـــــــه !

وكان يجلس مع « الشلة » رجل كلما جاء دور الحساب فى بار اللواء يصر على أن يدفع ثم يخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين جنيها . وبالطبع كان الجرسون يعتذر فيدفع آخر من أفراد الشلة ، وتكررت هذه القصة أكثر من مرة ، وفى مرة هم الرجل بدفع الحساب بعد أن أقسم أكثر من مرة . ثم أخرج نفس الورقة المالية الكبيرة وعلق البشرى على الفور :

— انت برضه طلعت الأبونيه . .

وكان الشيخ البشرى فى مأدبة عند الأباظية . وخرج ليغسل يديه بعد الغداء وترك جبته السوداء معلقة على مقعد فى الحجرة وعندما عاد وجد أحدهم رسم وجها لحمار بالطباشير على الجبة فقال الشيخ متسائلا :

— مين فيكم اللى مسح وشه فى الجبة ؟!

وشوهد حزينا ذات يوم فسأله حافظ ابراهيم عن سبب حزنه فروى البشرى القصة . قال :

— جاءنى اليوم رجل من الريف يرغب ويلح فى نشر

اسمه بالجريدة . وسألته ، هل أنت عمدة ؟ فأجاب بالنفى ، هل كنت ضمن زوار رئيس الوزراء ؟ قال لا . هل مات قريب لك فننشر اسمك فى النعى ، أجاب لا . قلت له اسمع اذهب فارم بنفسك تحت الترام وعندئذ سننشر اسمك ..

وسأله حافظ :

— وماذا يحزنك فى الموضوع .

وأجاب البشرى :

— يبدو أن الرجل أطاعنى .. فقد خرج .. ولم يعد .

ويرى حافظ شابا وسيما فيهتف قائلا :

— الله أكبر ، هكذا أبناء الأمهات اللاتى تدفع المهور الغالية لامهاتهن .

ويعقب البشرى على الفور ..

— على كده الست والدتك دفعت « دوطة » للمرحوم والدك ..

زيــــور كلــه

وقلمه كان أكثر مرارة من لسانه . كتب عن زيور باشا ذات مرة يقول :

« فإذا أطلعت عليه أدركت أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ومنها ما يدور حول غيره » .

ثم يقول :

« وأهل مصر يأخذون على زيور « كله » مالا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية . وانهم ليعدون عليه ، بأموال الدولة واستهتاره بمصالحها . ولكن من الظلم أن يؤخذ البرىء بجريرة الآثم ، وأن يعاقب المظلوم بجريمة الظالم .

فقد يكون الذى أقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور الأيسر ، أو القسم الأسفل من « لغده » أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى »

« ان الحق والعدل ليقضيان بتأليف لجنة تقوم بعمل تحقيق مع صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوا عضوا وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا .. ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور ، فما أحسبه شارك ولا دخل فى شىء من كل ما حصل » .

مصابيح الدجى

ثم يغمز بعض السادة مشايخ الإسلام فيقول :

« وزيور يحترم البرنيطة . حتى أنه لا يرد لحاملها طلبا . وحتى لقد زعموا ان بعض كبار علمائنا الأعلام . مصابيح الدجى وعمد الإسلام ، بعد ما أعياه الكد والجهد وشدة السعى وطول الوقوف بالأبواب فى سبيل وظيفة خالية ، عزم أخيراً على لبس القبعة لعله يحظى بمعونة زيور على افتاء الديار أو مشيخة الإسلام ومولانا الشيخ المذكور أعلاه ، لايعدم الف فتوى من الشريعة ، تحل له هذه الذريعة » .

باسم الأمة والحكومة

ويصف الدكتور محجوب ثابت فيقول :

« هو فى ميراثنا القومى لايقل عن آثار سقارة ، وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء . وهو جزء من تقاليدنا كحفلة المحمل ووفاء النيل ، وشم النسيم . وانك لتراه كلما ساروا بضحية حرية ـ يقصد شهيد ـ كان الدكتور أول المشيعين . فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان فارسه المعلم ، فإذا تعانق الهلال والصليب كان هو الهلال . وإذا اعتدى أحد على جماعة الأرمن . طار الدكتور إلى دار قنصليتهم يخطب

جمعهم ويعقد معهم المعاهدات باسم الأمة والحكومة .

مُطـالب ســـابق

وكتب مرة فى السياسة اليومية مطالبا الدكتور محجوب ثابت بأن يكتب على بطاقته : دكتور محجوب ثابت ، مطالب بالسودان سابقا ، وعضو نواب حاليا .

فكـرى زمـــان

وكتب مرة يصف صديقا فقال :

« متكور الوجه ، أضيق العينين فى ضيق محاجر . مقرون الحاجبين لو رأيته مع إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها لم يتعهدها منجل البستانى بالتسوية والتهذيب هل عرفت الصديق الذى كان يصفه الظريف .. البشرى :

« انه الاستاذ فكرى أباظة » .

المشـــق بالســـياط

ويشن الشيخ البشرى حملة رهيبة على المتقعرين فى الفصحى الذين يتشبثون بالغريب من اللفظ ، حتى لتحسبهم يكتبون رطانة ، فيقول : إذا أبيتم ألا يتنـدر الناس إلا بالفصيح فعليكم أولا بتحفيظ الأمة كلها المعلقات السبع والمذهبات السبع والمتنقيات السبع والملحمات السبع ، وأنا زعيم لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون فى أعراس أولاد البلد فى قافية أسماء الشوارع مثلا . اللى على جتتك ! اشمعنى ؟ الضرب الأحمر . وسيسمعون بدلها ان شاء الله : هذا البادى على جثمانك ؟ ما باله من أثر المشق بالسياط ! »

ويداعب حافظ ابراهيم فى بابه المختار .. المرآة .. فيقول جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنما قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر لحظة أن يكون

انسانا فكان والسلام ، أما عيناه فكأنهما دقتا بسمارين دقا وأما لون بشرته ـ والعياذ بالله ـ فكما عهد به إلى نقاش مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها في أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها فخرج خرجا من هذا كله لا يرتبط بواحد منها بسبب . وإذا أطلقته فى البر حسبته فيلا ، وإذا أطلقته فى البحر حسبته درفيلا » .

أعـــور شـــمال

ويقابله صدّيق فى الطريق فيشكو له الشيخ البشرى من ألم شديد فى المصران الأعور ويشير له على مكان الألم فى الجانب الأيسر من بطنه ، ولكن الصديق يطمئنه بأن المصران الأعور لايوجد فى الناحية اليمين ويجيب البشرى فى هم شديد .

يمكن أنا أعور شمال .

نظـــرة عميقـة

ولم يكن البشرى مجرد ساخر من الناس والحياة . بل كان فنانا عميق النظرة ، رقيق الإحساس وله بحوث قيمة فى الغناء والقراءات والشعر والأدب ، وعاش حياة عريضة حافلة . وسئل قبل وفاته بأيام عن أعظم شاعر .. فأجاب عبد الحميد الديب . وأعظم أشعاره قال :

تعلمت فيها صبر أيوب فى الغنى
وذقت هزال الجوع أكثر من « غندى »
جـوارك يـا ربـى لمثلى رحمـة
فخذنى إلى النيران أو جنة الخلد

وكأنما كان الشيخ البشرى ينعى نفسه فمات بعد ذلك بأسبوع وكان قبل ذلك بأيام ملء السمع وملء البصر . وضاعت مع الشيخ البشرى فترة من أجمل فترات تاريخنا ...

السيد ... العبد

■■ دخل الأدب بأزجاله وهى أزجال لاتقف على اقدام .. ولكنه فرض نفسه على الأدب والأدباء من خلال النكتة والقافية .

إمام العبد

لعله أغرب أديب فى زمانه وفى كل الأزمان ، فقد دخل الأدب بأزجاله ، وهى أزجال لاتقف على أقدام ، ولكنه فرض نفسه على الأدب والأدباء من خلال النكتة والقافية ! ونكتته ليست مسلية وليست مضحكة ولكنها قاسية وتحمل رايا ، فهو ناقد اذن أسلوبه فى النقد أن ينكت عليك وعلى الآخرين . ولقد كانت قسوته أمراً حتميا جاءت نتيجة وضعه الاجتماعى فهو ابن عبدين اشتراهما أحد الاثرياء الأغنياء من سلالة الترك ، وكان إمام العبد هو نتاج هذا الزواج الفريد .. الغبى !

نشأ إمام العبد فى بيت ليس بيته ومع ذلك يضم أبواه . والكلمة الأولى والأخيرة فيه لرجل جاهل كحمار ، غبى كثور ، عديم النشاط والإحساس كأنه سلحفاة ، وكان الطبيعى والحتمى لولد فى مثل ظروفه أن ينشأ ويتعلم ويتربى ليصبح بوابا أو سايس خيول أو طباخا على أحسن الفروض . ولكن الخطأ الذى وقع فيه الباشا التركى أنه أرسل إمام إلى المدرسة . وفى المدرسة تعلم أمام القراءة والكتابة وفى المدرسة أيضا شاعت قصة حياته فأصبح مضغة فى الأفواه ، وكان لابن العبد أن يدافع عن نفسه ، وكل إنسان يدافع عن نفسه بما تملكه يداه ، ولم يكن إمام العبد يملك شيئا إلا لسانا أطول من حبل الغسيل ، وأحد من سيف المقاتل ، وأشد فتكا من سم الثعبان .

وهكذا حمل إمام العبد سلاحه واقتحم المعركة غير آسف ولا هياب ..

ضــــد الجميـــــع

والإنسان ـ أى إنسان ـ لا يولد شريراً بطبعه ، ولا يولد طيبا من بطن أمه . ولكن الإنسان ، يتخذ موقفه دائما على ضوء موقف المجتمع منه .. وعندما تكون رجلا مهابا ومحترما من الناس فأنت بالضرورة طيب مع الجميع .. وعندما تكون مسخة وملطشة فأنت بالضرورة ضد الجميع ..وهكذا أصبح إمام العبد ضد الجميع ، لأنهم جميعا كانوا ضده .

ولكن إمام العبد لم يكن شريراً ، كان ظريفا ولذلك لم يخرج على المجتمع ، ولكنه آثر أن يتتريق عليه . وبرع إمام العبد فى النكتة حتى صار أحد أعلامها فى مطلع القرن العشرين ، وأصبح زينة كل مجلس ومقصد كل فنان . والتف حول العبد كل مشاهير عصره ، وكان أقربهم اليه عبد العزيز البشرى وحافظ ابراهيم ..

وذات مساء كان حافظ يزوره فى بيته ، وخرج العبد من الحجرة بعض الوقت ثم عاد ليأمر حافظ بأن يلقى بالسيجار التوسكانى الذى كان يفضله خارج الدار . وعندما سأله حافظ عن السر فى هذا الطلب الغريب ، قال العبد .. « أصل أبويا فاهم أن احنا مولعين الفرن بجله » والجلة هى روث البهائم الذى يستعمله الفلاحون فى الوقود ..

وذات مساء خرج آخر الليل من البار مع شفيق المصرى ، وكانت ليلة باردة من ليالى الشتاء ، واستقلا عربة حنطور ومضى بهما الرجل على غير هدى ، وأخيرا سألهما : البهوات رايحين على فين ؟ ورد العبد وهو يرتعش من البرد ، الدنيا برد احنا مش قادرين نتكلم ، إذا كنت عاوزنا نرد عليك أقف

فى شارع دفا واحنا نقولك ..

الجــزار الأديــب

وكان له صديق جزار هجر الجزارة واحترف الأدب ، وكان الجزار يجلس مع العبد وحافظ ابراهيم فقال حافظ للجزار : ازى الحال ؟ وقال الجزار : الحمد لله ، وعاد حافظ يسأله : الجزارة الأحسن والا الأدب ، فأجاب العبد على الفور : هُوَّه لما كان جزار كانت الكلاب بتمشى وراه ، دلوقت لما أصبح أديب ، بقى يمشى ورا الكلاب ..

وليس فى العالم أبلغ نقدا لمهنة الأدب من هذه النكتة الخاطفة القاتلة وكأنه يطلق قنابل من مدفع ميدان .

* * *

وكان البشرى بخيلا إلى حد ما ، فقال عنه العبد : « البشرى مش ممكن يركب تاكسى إلا إذا كان بوزه ناحية حلوان » ولما سأله الحاضرون عن السبب أجاب « أصلى بيخاف أحسن العداد يعمل فلوس فى التدويرة » .

* * *

ولم يكتف بالتنكيت على الناس ، بل نكت على نفسه كان يجلس فى بار اللواء يكتب خطابا لصديق فتساقطت نقطة من الحبر على الأرض ، فقال على الفور ، يا خبر اسود ، الواحد بقى يعرق كتير اليومين دول .. ؟

* * *

وكان يجلس مرة مع حافظ محمود ، وكان يرتدى كرافتة سوداء ، فقال له حافظ محمود زرر قميصك يا إمام « باعتبار أن الكرافتة جزء من جلده » ورد إمام على الفور : « أما يبان جلدى ، أحسن ما يبان عرضى »

* * *

وكان له صديق شديد الكبرياء وشديد الفقر ، فقال عنه العبد « مرة صاحبنا ده كان ماشى فى السكة وبعدين لقى نص فرنك ، فضل واقف جنبه لحد ما فات واحد فقير ، فنادى عليه وقال له ، وطى يا ولد هات النص فرنك ده » .

* * *

وقف يتفرج مع صديق على خناقة حامية والمتشاجران يتشاتمان ثم يكفان عن الشتائم ، ويقتربان من بعض ثم يبتعدان .. ومضت نصف ساعة كاملة ولم تمتد يد أحدهما على الآخر . وسحب العبد زميله وقال له « ياعم ياللا بينا ، دى إشارة بس لكن الخناقة الأسبوع القادم » !

* * *

وكان لأحد أصدقائه سيارة قديمة مهكعة ، وكان دائم الركوب فيها ثم انقطع عن ركوبها فترة من الزمان ، ولما سألوه عن السبب قال « ياعم أنا ركبتها أسبوع نعل جزمتى داب » .

* * *

طلب منه أديب تافه أن يستمع إلى قصيدة من قصائده فقال له العبد فى همس : طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا » .

* * *

نعى إليه أحد أصدقائه وكان صاحب ورشة لحام فقال فى لهجة آسفة : « الله يلحمه » .

هنا كانت عبقرية إمام العبد الحقة ، أما إمام العبد كزجال فقد كان من نوع الزجالين الوعاظ ، غير أن وعظه كان ظريفا وخفيفا لأن الرجل نفسه كان كالطائر الصداح .

وكان الظريف من بيت أدب

وكان أبوه حازم وصاحب عكاز
ماشى على دين الليالى عجب
والعمر مخلوق للسهر والقمار
مالت عليه واحدة وقع فى الشرك
وبات أسيرا للحظ من غير سبب
وكل ما يحضر تقول الملك
حضر وتقديم التحية وجب
ضيع عليها المال بسحر العيون
وجاب له حلية بألفين جنيه
صبح على كيفه أسير الديون
وثروته فى اسم باشا وبيه

* * *

وهو زجال كما ترى من الدرجة العاشرة ، ولكن نكتة وقفشاته كانت من طراز عظيم .

ومات قبل أن يصل إلى الخمسين ، ولو أن أحداً من معاصريه عنى بجمع تراثه لكان للعبد شأن آخر ، فهو لم يكن صاحب نكتة فارغة ، ولكنه كان أديبا يصوغ أدبه فى نكتة ، وكان شاعرا قصائده قفشات ، وكان رساما لوحاته عبارات ينطقها بنت اللحظة ، وكان مقاتلا خنجره لسانه .

فى آخر أيام حياته قال له صديق عجوز : تعرف يا عبد لو احنا زمان أنا كنت اشتريتك .. وقال العبد : « عندك حق .. اللى زيك زمان كانوا بيشتروا العبيد عشان الزوجات » !!

رحم الله العبد ، لم يبق منه الآن إلا كلمات على السنة المحبين وما تبقى من الأصدقاء !



عبد الحميد الديب

■■ ويدور عبد الحميد في الحلقة المفرغة حول نفسه ، يستجدى الناس ويشتمهم ، ويقرض شعرا سيظل رغم كل ما يقال فيه ، أصيلا في حياتنا ، وله في تاريخنا تاريخ .

عبد الحميد الديب

عام ١٩٣٠ ، وصدقى باشا يحكم مصر بيد من حديد وكثيرون لايستطيعون دفع الضرائب المستحقة عليهم ، ويسقط عشرات قتلى المحنة بالذبحة والجلطة والموت المفاجىء السريع وعساكر البوليس تجوب القرى والحقول .

وكان منهم والد الشاعر البائس الحزين ، عبد الحميد الديب ..

من دار العلوم .. إلى الشارع

حدث ذلك عام ١٩٣٣ ، وكان عبد الحميد الديب فى دار العلوم ، ووجد نفسه فجأة بين أمرين ، أما مواصلة الدراسة والموت جوعا ، وإما الخروج إلى الشارع والبحث عن طعام ، واختار عبد الحميد الشارع ، وخرج إليه .

ولكن ماذا يستطيع طالب دار العلوم الفاشل أن يصنعه ، أنه يستطيع الوقوف عدة ساعات أمام بعض الصغار يعلمهم شيئا مما تعلمه ، ويقبض أصابعه كل نار على قروش تساعده على الحياة ، ولكن هذه المهنة الكئيبة لم ترق فى عينيه طويلا فسرعان ما هجرها إلى الشارع من جديد ..

وكانت نفسه قد امتلأت يأسا وفاضت أسى ، وشبت فى جوانحه نار الكراهية لكل الناس .. لم يكن عبد الحميد يعلم انهم مثله مظلومون ، ظن هو ـ خطأ ـ أنهم مسئولون عن محنته .

وكان عبد الحميد يملك أدوات الهجوم على الناس ، يملك لسانا سليطا وموهبة تطيعه فى قرض الشعر خصوصا عندما يكون الشعر موجها ضد أحد ، حتى ولو كان هذا « الأحد » هو عبد الحميد الديب نفسه !

ويتساءل عبد الحميد الديب وهو فى المحنة التى لايعرف مبررا لها ، هل هو حقا مخلوق أدمى ، له نفس الحقوق التى للآخرين ؟ يتساءل فى شعر حزين يقطر ألما وحزنا وكفرانا بكل شىء : .

أخلقتنى يا رب أم أنا واهم
أنا ما خلقت لأننى لا أرزق !

وهو يكره الناس ، ويعدهم مسئولين عن محنته ، أنهم يسخرون منه ، فلابد أن يسخر بهم ، هؤلاء الذئاب أكلة لحوم البشر ..

ترى ماذا طعمتم فى موائدكم ؟ ..
لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى
بين النجوم أناس قد رفعتهموا
إلى السماء فسدوا باب أرزاقى

وينظر عبد الحميد إلى نفسه .. إنه لايجد ما يأكله . وأيضا لا يجد ما يستره :

وجلبابى كمصطاف الغنى نوافذا
ومشتى الفقير ابن السبيل هشيما

والناس ليس عندهم وفاء .. وأصدقاء الطفولة والصبا لايرحمون تدهوره ، وتتحالف عليه المحن ، الزمن الغادر والأصدقاء وعبد الحميد يجتر حسرته فى شعره :

ليت العباد كلاب ان كلبتنا
لما تزل لحفاظ الود عنوانا

تحملت قسطها فى البؤس صابرة

لم تشك جوعا ولم تستجد انسانا

يسخر من نفسه

ولكن ماذا يفعل هو ، وقد فقد كل شيء حتى المقاومة ، إنه يستسلم الآن للمصير الذى انتهى إليه ، إنه كرجل سقط من فوق عمارة مرتفعة فهو لايستطيع إلا أن يدور مع الريح فى كل اتجاه !

- دع الشكوى وهات الكأس نسكر
ودعك من الزمان اذا تنكر
وهام بى الأسى والبؤس حتى
كأنى عبلة والبؤس عنتر
كأنى حائط كتبوا عليه
هنا يا أيها المزنوق « ترتر »

وهو فى نفس الوقت يحقد على الحياة ، ويتمنى أن تزول ، أنه أنانى سَوَّد الحرمان قلبه ، وحطم نفسه ، أنه ذئب هو الآخر .. مثل الآخرين ..

ويا ليت السما تهوى علينا

ويا ليت النجوم الصاعقات

انه ينسى نفسه هذه المرة .. ويذكر « علينا » لأول مرة ، لقد أصبح عبد الحميد شمشمون . يود لو تهدم المعبد على رأسه ، وعلى كل أعدائه .. والبشر جميعا أعداء لعبد الحميد .

ويدور عبد الحميد فى الحلقة المفرغة حول نفسه ، يستجدى الناس ويشتمهم ، ويقرض شعرا سيظل رغم كل ما يقال فيه ، أصيلا فى حياتنا ، وله فى تاريخنا تاريخ .

حــــذاء جـــديـد

ولكن عبد الحميد لاينسى فى ساعات صفوه أن يضحك الناس ، وأن يبهجهم ، يقابله صديق مرة فيتحاشاه عبد الحميد ، ويهرع الصديق لعناقه ويسأل لماذا يتحاشاه ؟!

ويقول عبد الحميد أنه قد قرر ان يتحاشى الناس كلهم ، فقد أصبح له حذاء جديد وبدلة جديدة ..

ويضحك الصديق حتى يستلقى على قفاه ، فقد كانت البدلة والحذاء ليسا جديدين ، ويغيب عبد الحميد أياما طويلة ، ثم يعود للظهور من جديد .. ويسأله صديق عن سر غيبته ويجيب عبد الحميد :

— كنت فى البلد شفت « الفدانين » ورجعت ، ويتساءل الصديق مندهشا :

— فدانين أيه ؟ ..

ويجيب عبد الحميد :

— واحد صاحبى اسمه محمد الفدانين ..

* * *

وكان يجلس الساعات الطويلة يروى قصة مغامراته مع النساء وكيف ان سيدة متزوجة من رجل عظيم وقعت فى هواه ، وكيف ذهب معها إلى شاطىء البحر ، وقضى معها أياما جميلة بهيجة .

ويسكت عبد الحميد الديب ، ثم يرتفع صوت صائحا :

— علىّ الطلاق ما حصل يا عبد الحميد ..

ويصيح عبد الحميد على الفور :

— علىّ الطلاق ما حصل ..

حــــل العمـــائـم

ويذهب عبد الحميد مع أحد أصدقائه إلى قرية قريبة من القاهرة ليؤدى واجب العزاء فى وفاة أحد مشايخ الاعراب ..

وكان السرادق مكتظا بالناس أصحاب العمائم ويقف عبد الحميد على دكة خشبية ويصيح فى الجالسين وهم آلاف :

— أيها الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم .. ويخيم الصمت على السرادق ، ويحل جميع الموجودين عمائمهم فى صمت ، ثم يرتفع صوته من جديد ، أعيدوها كما كانت ..

ويكشف عالم من الأزهر كان فى السرادق وأخذته المفاجأة فحل عمامته هو الآخر ويكشف انه ليس هناك حديث نبوى فى هذا الشأن على الإطلاق !!

وتثور الجماهير على عبد الحميد الذى غرر بها ، ويلزم عبد الحميد فراشه بعد ذلك شهرا كاملا لا يستطيع أن يبرحه من أثر الضرب الشديد ..

ولكن عبد الحميد رغم كل شىء يعيش فى مشاكل لاحصر لها ، وهو يريد ان ينسى مشاكله .. ولاسبيل إذن إلا المخدرات ، ويغرق عبد الحميد فى بؤرة الهيروين ، ثم تظهر له وظيفة فى الأفق .. عام ١٩٤٣ .

أرادت السلطة البريطانية أن تظهر للناس قوتها فى ميدان الحرب ، فجاءت بطائرة المانية سقطت فى معركة العلمين ، ووضعتها فى ميدان قصر النيل ، ليراها الناس ، وكان لابد من رجل يرشد الناس إلى قصة الطائرة ، وكان الرجل عبد الحميد ولم تمض شهور حتى أزيلت الطائرة من الميدان ، وعاد عبد الحميد إلى الشارع .

مشـــرد رســـمى

ثم يأخذه الاستاذ عبد الحميد عبد الحق ويوظفه بوزارة الشئون الاجتماعية وبمرتب شهرى قدره ستة جنيهات ..

ستة جنيهات ليأكل وينام ويلبس كما يفعل سائر الموظفين ولا سبيل الآن إلى التسول فهو موظف حكومي كبير ..

ويضيق عبد الحميد بالوظيفة وما جرته عليه فيقول :

بـالأمس كنــت مشــردا أهليـا
واليـوم صـرت مشـردا رسميـا

ويهجرها إلى الأبد ، ليعود إلى الشارع يشتم الناس ، ويستجديهم وتشتد عليه العلة ويقسو عليه الداء .. وينتهى به الحال أخيرا الى فراش قذر بمستشفى قصر العينى ..

وكأنما لمح عبد الحميد نهايته .. لقد آن لهذا الكادح المعذب الذى قست عليه ظروف أقوى منه كثيرا ، هى الظروف التى جرت على أبيه الخراب ، وقتلته محسورا وألقت به هو الى الشارع مع الكلاب .. آن له أن يستريح ويهتف عبد الحميد وكأنه يرى مصيره المحتوم ..

وداعا شبابى فى ربيـع شبابى
وأهلا حسابى قبل يوم حسابى

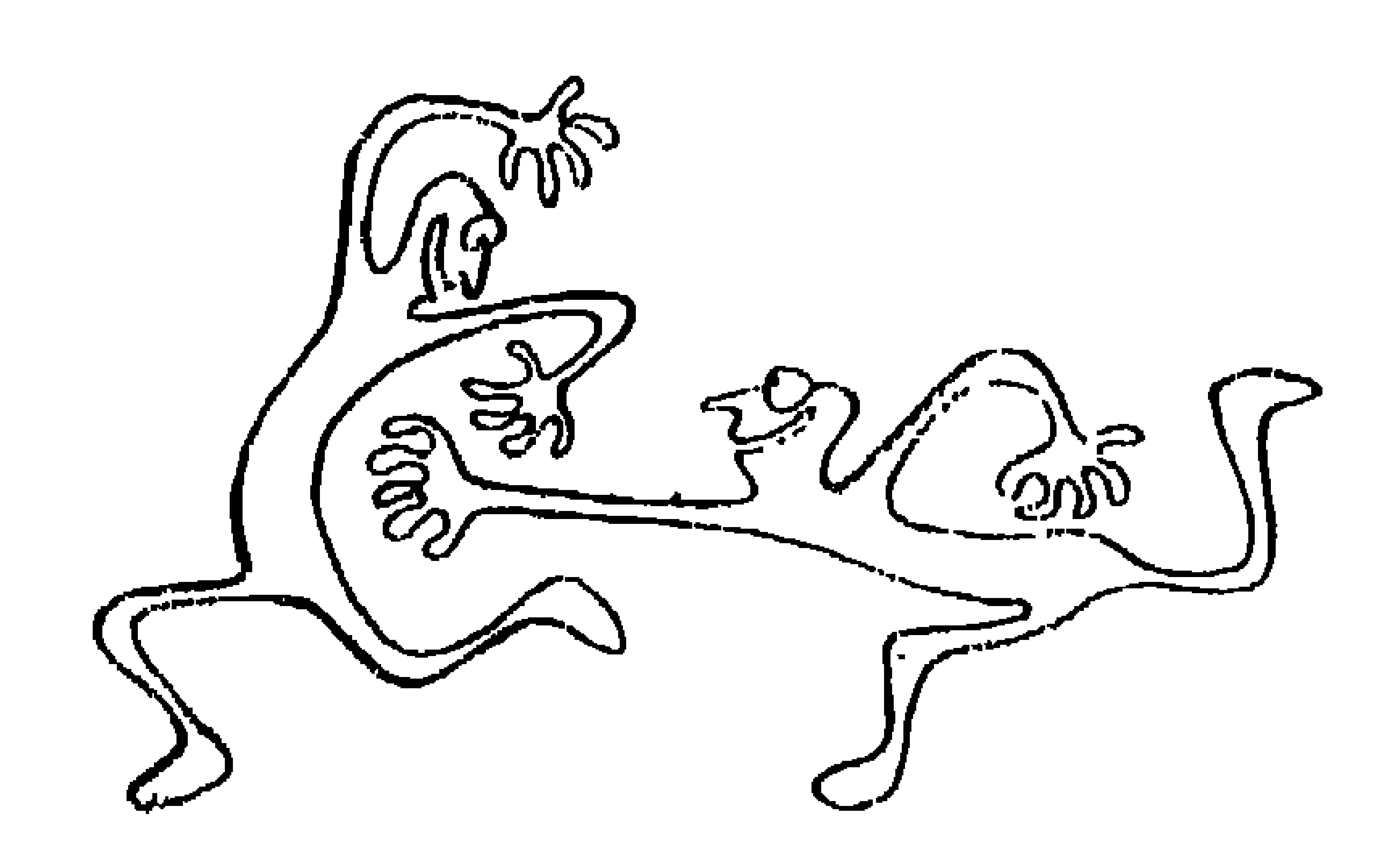
ثم يقمص عينيه ويستريح إلى الأبد

ولم يترك خلفه شيئا ، سوى عشرات من القصائد بعضها يصلح للنشر ، وبعضها يعاقب عليه قانون العقوبات ، وحجرة قذرة معتمة كان ينام فيها أحيانا ولم يكن بها شيء ، كان هو فيها كل شيء ..

لم يذكره أحد عندما مات . رجل واحد فقط ذكر الناس به فقد كان صديقا له فى حياته هو الشاعر الكاتب المعروف كامل الشناوى فقد كتب يومها يقول :

« اليوم مات شاعرٍ تعرى واكتست الأضرحة ، جاع وشبعت الكلاب » ..

وكم من الكلاب ماتت بالتخمة ، وكم من الناس ماتوا مثل عبد الحميد الديب من الجوع .





الأعمى المبصر .. ناجى

■■ شىء واحد كان يحسه ناجى بوضوح .. هو وحدته ، والوحشة التى كان يعانيها والإخلاص الساذج الممزق الذى تتمسك به نفسه الشفافة الحانية .

ابراهيم ناجى

عاش وإحدى عينيه مفتوحة على حقائق بشعة من الحياة ، والعين الأخرى نصف مغلقة ، تثقلها الأحلام .

هكذا وصف ناقد من معاصرينا الشاعر ابراهيم ناجى .. والحقيقة تخالف رأى الناقد .. فقد عاش ناجى وإحدى عينيه مغلقة ، والأخرى نصف مفتوحة ..

ومن خلال هذه الفتحة راح ناجى يرى حقائق مشوهة ليست واضحة ، وبالعين المغلقة راح يحلم بعيدا عن المجموع أحلاما حاول أن يفرضها على الواقع .. ولهذا السبب لم يلمع شعره ـ رغم جدته وقوته ـ لأنه لم يدرك سر القوة التى تجعل من الواقع عالما أقوى وأجمل وأعذب من الأحلام .. فناجى واحد من الذين لم يكتشفوا سر انقلاب الأوضاع حتى بدت بشعة رهيبة ، فارتدوا منطوين على يأس قاتل .. ولكنهم أحيانا كانوا ينطلقون ، كل منهم بنفسه ثم يعود منفردا كما انطلق .. فلم يتح له ولا لغيره من أمثاله أن يشعروا بالقوة التى تمنحها الجماهير للذين يعبرون عن إرادتها ، فظل حياته كلها يجتر أحزانه ، ويغنى للحياة غناء كأنه الأنين .. بائسا يائسا يثير الرثاء ..

ولكن ناجى رغم ذلك لم يفقد أبدا القدرة على الإبداع .. وكان له فضل عظيم على شعرنا المعاصر ، فقد استطاع تحريره من اصفاد ثقيلة قعدت به عن تحقيق أهدافه زمنا طويلا .. وفتح أمامه طريقا واسعا انتهى به على أكتاف

شباب الجيل المعاصر إلى دنيا الجماهير يخاطبها ببساطة ويترجم أمانيها فى عذوبة أو يدفع بعجلة الحياة فى إصرار إلى الأمام .

شىء واحد كان يحسه ناجى بوضوح .. هو وحدته والوحشة التى كان يعانيها ، والإخلاص الساذج الممزق الذى تتمسك به نفسه الشفافة الحانية .

أرنو إلى الناس فى جموعهم
أشقتهم الحادثات أم سعدوا

تصور ، إنه لا يدرى .. وهو نفسه لا ينكر ذلك .. فهو أعظم من غيره .. إنه لا يدعى خبرته بالناس والحياة والسر كما قلت إنه كان غريبا عن دنيا الناس .. لم يكن يحيا معهم ولا بينهم .

إنى غريب تعال يا سكنى
فليس لى فى زحامهم أحد

طرف واحد

ومن أجل هذه الوحدة عاش ناجى طول حياته حائرا لايستقر على حال .. ولعل هناك سببا آخر هو غرامه العنيف الذى كان يعيش فيه ويعيش له .. غير أنه ـ وهنا العقدة ـ كان غراما من طرف واحد .. فقد كان هو وحده الذى يحب .. أما الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى فلم تكن تحس بوجوده .. وأن أحست فلم يكن هذا الإحساس يزيد عن كونه شاعراً مشهوراً ورجلا من الظرفاء ..

والعقدة التى حولت كثيرين من أعلام الفن أمثال لوتريك وكافكا إلى هوة سحيقة من اليأس ، هى نفسها التى أمدت ناجى بالأمل .. وحلت عقدة لسانه فجعلته لاذعا ومن هنا أيضا جاءت شهرته كواحد من الظرفاء .

فناجي الفنان كان ضئيلا قصيراً غير متناسق الأعضاء ولأنه لم يكن مؤمنا بشيء على الإطلاق فقد سخر من كل شيء ، وأثار السخرية على كل شيء .. حتى على عمله وعلى نفسه ..

روى مرة أنه عاد مريضا مشرفا على الموت فوصف له الدواء واشتراه من جيبه ثم منحه جنيها وانصرف ..

ومضت أيام طويلة حتى التقى بزوجة الرجل المريض ، وكانت سعيدة مبتهجة ، وسألها ناجى عن حالة زوجها فأجابت مسرورة : الحمد لله ربنا يخليك لنا يادكتور .. الجنيه بتاعك جبنا به دكتور كويس ، وربنا شفاه والحمد لله .. ويضحك ناجى حتى يستلقى على قفاه ..

كلب بوليسى

وخلال أيام الظلام ، عندما فرض الطاغية فاروق على القاهرة أن تنام فى السادسة من مساء كل يوم .. كان ناجى يحمل تصريحا يخول له حق التجول فى أى وقت يشاء ..

ثم ذات ليلة هاجم كلب ضال ناجى أثناء سيرة فى الطريق وعضه فى ساقه فلزم الفراش ، وراح ناجى يروى القصة لاصدقائه قال :

— أنا ماشى الساعة واحدة ، والكلب ماشى ورايا .. أطرده مافيش فايده .. أزوغ منه القاه ورايا .. افنكرته فى الآخر كلب بوليسى .. ورحت مطلع التصريح وعلى طول يا أفندم وراح هاجم على وعاضضنى ..

ويضحك ناجى ويقول :

— ظهر أنه كلب جاهل ما بيعرفش يقرأ ..

أجـــــرنى

ومرة خرج ناجى من عيادته بشبرا فشاهد جنازة يبدو من مظاهرها أنها لرجل فقير ووحيد أيضا ، فلم يكن خلف النعش سوى أربعة رجال يبدو أن الصدفة وحدها هى التى جمعتهم ، وسار ناجى بدافع الشهامة مع المشيعين ، ثم خطرت له فكرة رائعة ، لماذا لايشترك فى حمل النعش حتى يكسب ثوابا .. ونفذ الفكرة على الفور .. يقول ناجى :

— ودخلت على الراجل اللى شايل من قدام .. وقلتلو آجرنى « تعبير يقال فى مثل هذه المناسبة فراح مآجرنى على طول زى ما يكون كان منتظرنى .. وشلت الخشبة يا أستاذ من شبرا لغاية شبرا البلد .. والميت الله يرحمه كان تقيل .. والدنيا حر .. ولا واحد عاوز يآجرنى .. وصلنا شبرا البلد ، حمدت ربنا لأن الترب هناك ، لكن المصيبة الكبرى ان واحد من المشيعين لقيته بيسأل العسكرى ببلاهة : وحياتك قليوب من أى ناحية ؟

ويقول ناجى : وعندئذ سقطت فوق الأرض ، والميت من فوقى وعندما أفقت لم أجد أحداً .. سوى الظلام .

شــــاعر ملكى

وكان ـ رحمه الله ـ يستقل عربة مع صديق له فى طريقهما إلى الأسكندرية عبر الطريق الزراعى وأوقفت العربة إحدى نقط المرور لسبب ما .. وأراد الصديق أن يدلل على أهمية صديقه لعسكرى المرور ، فقال له مشيرا إلى ناجى :

— الدكتور ابراهيم ناجى الشاعر الكبير ..

ونظر العسكرى فى بلاهة إلى الدكتور ناجى ثم قال متسائلا :

— بتجول شاعر ؟ .. أما يعنى لابس ملكى ليه ؟ !

إحـــراز قصـــيدة

وكان ناجى يضيق ضيقا شديدا بشاعر شاب ثقيل الظل يصر دائما على أن يسمع ناجى قصائده التافهة .. ولم يكن ناجى يجرؤ على جرح شعور هؤلاء الشبان الذين كانوا يتهافتون على صداقته .. ولكنه لم يكن يخفى ضيقه بشاعرنا الثقيل .. فقد كان يتبعه كظله .. ثم ظهر ناجى مرة وحيدا وليس معه أحد .. وأقبل عليه أصدقاؤه يهنئونه :

— مبروك ، خير ان شاء الله ، مات ولا إيه ؟

وصمت ناجى قليلا ثم قال :

— أبدا ، سمعت دلوقت أن البوليس قبض عليه ..

— قبض عليه ، ليه ؟

— ضبطوا معاه قصيدة .. ولو انكر انها بتعته ، أنا حشهد ضده ..

بين الدكاتـــرة

ونقده طه حسين نقدا قاسيا فوصفه بأنه أديب بين الأطباء ، طبيب بين الأدباء . وعلق المرحوم ناجى على هذا النقد القاسى بنكتة فقال :

— أنا من هنا ورايح حاكون طول النهار مع « الدكتور » طه حسين و «الدكتور» طه بدوى .. عشان أحس اننى أديب .. هو مش قال على اننى أديب بين « الدكاترة »

لـو جلـــس

وكان يحب الشاعر أبا نواس ويفضله على كل الشعراء القدامى ، وكان يقول : إن أبا نواس نقطة تحول فى الطريق الذى لا يقف ولا يجمد ـ طريق الفن ـ ويستشهد ببيتين من شعره ليدلل على عظمته .. وفى هذين البيتين كان أبو نواس يسخر سخرية مرة من أصحاب المذهب الاتباعى فى قرض

الشعر .. الذين يبدأون بذكر الأطلال والرسوم الدارسة ، ويقضون الساعات الطوال وقوفا يبكون على الذى كان .

قل لمن يبكى على رسم درس
واقفا ما ضر لو كان جلس

علـــى علـــى

وسأل شاعر شاب الدكتور ناجى عن رأيه فى شعراء العصر الحديث .. فأجاب :

— أعظمهم شوقى .

وسأل الشاب :

— من يأتى بعده :

وفكر ناجى قليلا ثم قال :

— يأتى بعده .. على على .

وقال الشاب مستنكرا :

مين على على ده ؟

وأجاب ناجى :

— والله ما عرف ..

وهكذا عاش ناجى ساخرا متفكها يجتر أحزانه فى صمت .. وأن كانت أحزانه قد طبعت شعره .. وحولته حتى أصبح رمزيا .. يحلم بشىء لا يراه .. وهكذا أيضا غلب التشاؤم واليأس على نظرته للحياة .. وكان يراها تافهة لا تستحق العناء . وكان يخشى الغد ويهابه فلم يكن يدرى أن الغد سيكون حتما من نصيب الجماهير .. ولذلك لم يحاول أن يشترك فى صنع الغد .. لأنه لم يكن يؤمن به ..

أن غدا هوة لناظرها   تكاد الظنون ترتعد
أطل فى عمقها أسائلها   أفيك أخفى خياله الأبد

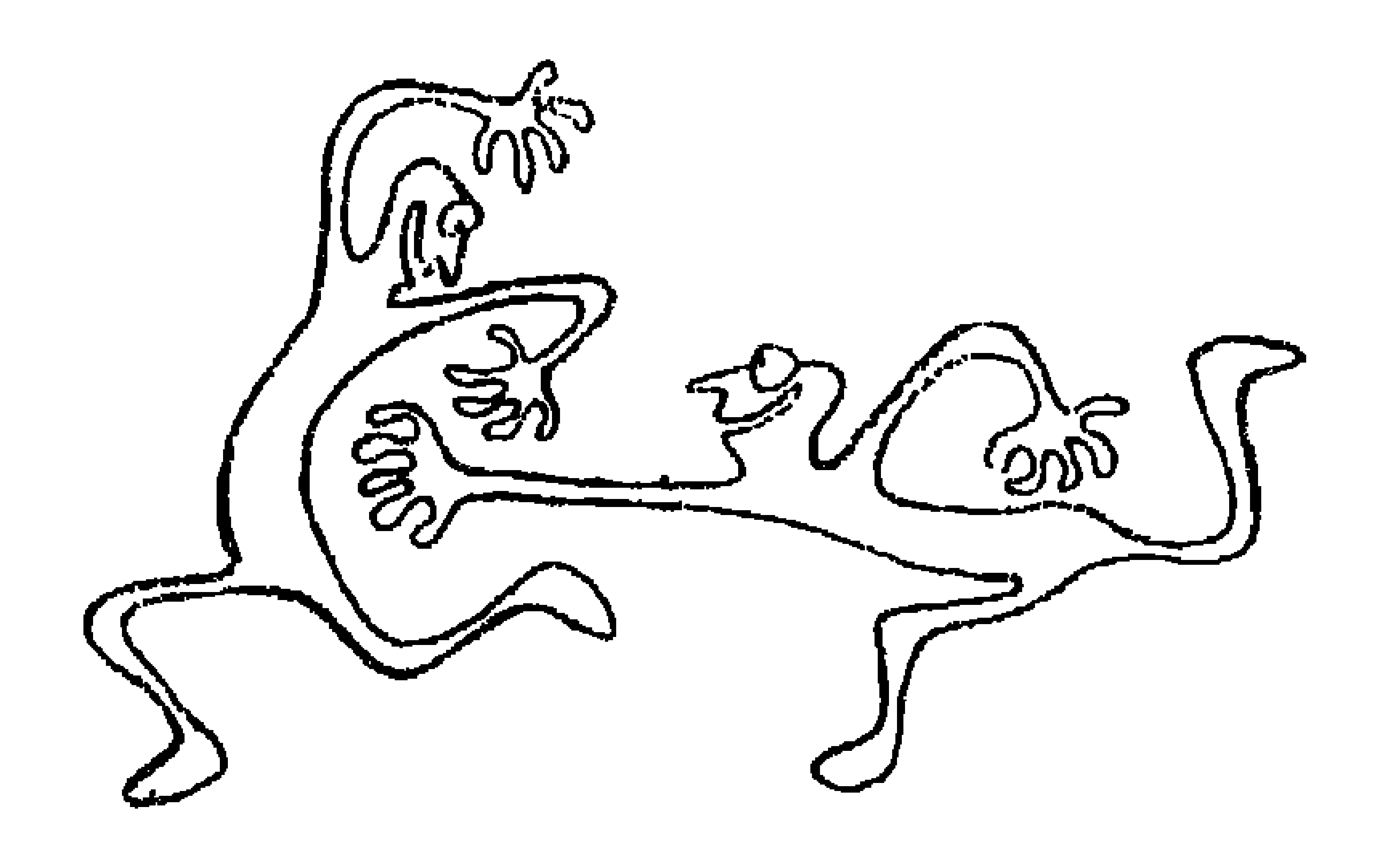
مش دكاترة

ومرض طويلا قبل وفاته .. وحز فى نفسه أن المبلغ الذى ادخره طول حياته استنزفه الأطباء لعلاجه .. علاجه هو الأديب الطبيب الذى كان يفحص المريض ثم يشترى له الدواء والطعام ثم يمده بشىء من المال ان استطاع وعندما شفى من مرضه قال ضاحكا :

كل ما جيب واحد دكتور ياخد فلوس فلوس .. اللى ما لقيت واحد رفض .. يكونش احنا مش دكاترة .

النهاية

وعندما مات كان فى عيادته يمارس عمله .. وفجأة سقط على الأرض يتلوى من الألم .. وقبل أن يسعفوه كان قد مات .. وذهب الشاعر الأديب الظريف ابراهيم ناجى . الرجل الذى قضى حياته كلها ، وإحدى عينيه مغلقة والأخرى نصف مفتوحة ، حتى مات ، فقدر له أن يغلقهما .. ولن يستطيع فتحهما بعد ذلك أبداً .. فقد ترك من خلفه شعراً مثل عينيه لا يكاد يكشف ما فى دنيا الناس من أوضاع خاطئة .. إلا قليلا .





رب المقالب .. حفنى

■■ استخدم حفنى محمود هذه الموهبة ، موهبة صنع « المقالب » فى كل مهنة عمل فيها . استخدمها كسياسى واستخدمها كوزير ، واستخدمها ككاتب ، وكصحفى وكصديق ، وكان أولا واخيرا يستخدمها كإنسان .

حفني محمـود

لا أدرى كيف ابدأ الكتابة عن حفنى محمود . هل أكتب عن حفنى محمود ابن الذوات ، سليل الأسرة القوية الثرية فى الصعيد .. أم عن حفنى محمود السياسى ذى النظرة البعيدة ، والقبضة السحرية التى تجمع بأطراف كل الخيوط . أم عن حفنى محمود الأديب ، صاحب الأسلوب الساخر ، والنظرة الواعية بكل ما يحيط بها من امور ..

أم عن حفنى محمود رجل السلام ، أول (باشا) من اسرة كل أفرادها من أهل إقطاع ، وهواة حكم ، وهو يدعو للحب ، ويدعو للسلام . ويمجد الحرية ويهتف لها ..

أم عن حفنى محمود صاحب « المقالب » المشهورة ، التى أضحكت الناس حينا ، وأبكتهم أحيانا . وكانت خير انتاج حفنى محمود الفنان .

الحقيقة اننى فضلت أن أكتب حياته من خلال هذه « المقالب » والسبب ، أن حفنى محمود كان فنانا . لم يجد ردا صادقا يمكنه أن يرد به على أوضاع المجتمع المقلوبة إلا أن يسخر به ، وبأوضاعه ، وبمن صنعوا هذه الأوضاع . ان الذين صنعوا هذه الأوضاع حفنة من الناس تنتمى إلى طبقة هو أحد أبنائها !

ولكن ماذا يهم ؟ أنه ككل فنان يعمل ما يرضى الرجل الفنان . ثم بعد ذلك ، فليأت الطوفان .. ولكنه لاينسى الذين استسلموا لهذه الأوضاع المقلوبة ، والذين ارتضوها . وهم

عامة الشعب . ولذلك كانت سخريته من الجميع ، ومقالبه كان يقع فى شراكها ، أبناء الشعب وأبناء الذوات كذلك .

موهبة المقالب

واخترت أن أكتب حياة الرجل من خلال هذه المقالب لسبب آخر هو أن حفنى محمود استخدم هذه الموهبة .. موهبة صنع « المقالب » فى كل مهنة عمل فيها .. استخدمها كسياسى ، واستخدمها كوزير ، واستخدمها ككاتب ، وكصحفى ، وكصديق ، وكان أولا وأخيرا يستخدمها كإنسان..

وفى هذا الحيز الضيق سأحاول جاهدا أن أسرد بعض « مقالب حفنى محمود » تاركا للقارىء استخلاص العبرة ، واستخلاص الموعظة ، واستيعاب ما تقطره من سخرية حمراء .. كالدم ..

هيكل فيلم

فى أول عهد الوزارة الوفدية الأخيرة كان يتولى منصب مدير المطبوعات فى وزارة الداخلية زميل طيب جدا هو الدكتور عبد الباسط الحجاجى . ورفع حفنى محمود سماعة التليفون وطلب الدكتور الحجاجى . ودارت بينهما المناقشة التالية :

— حضرتك عبد الباسط الحجاجى .

— أيوه يافندم .

— أنا مدير شركة هيكل فيلم .

— أهلا وسهلا .

— فيه والله قصة قدمتها الشركة من شهر ولم تخطرنا الرقابة بعد بالموافقة ، مع أن شركة نحاس فيلم قدمت قصة

بعدنا ووفق عليها ، فالمسألة إذا كانت محسوبيات عشان نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا وهيكل فيلم فى المعارضة ، يبقى المسألة لها وجه تانى ..

— لا يافندم مافيش محسوبيات أبدا .. وأنا كمان ماكنتش أعرف أن نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا ، وكما ماكنتش أعرف أن هيكل باشا عامل شركة أفلام ..

— لا أهوه ده اللى حصل .

— طيب الصبح ان شاء الله ، رايح أطلب القصة بنفسى وأشوفها .

— متشكر ..

— مين اللى بيتكلم يافندم ؟

— هيكل باشا ..

وفى الصباح طبعا . طلب مدير المطبوعات قصة شركة هيكل فيلم ، وروى قصة المكالمة التليفونية بينه وبين هيكل باشا ، وكانت فضيحة كبرى .

مثـــل آخـــر

يدعو أحمد خشبة رئيس الوزراء محمد محمود إلى حفلة غداء فى بيته . ولا يدعو إليها بقية الوزراء .

ويمسك حفنى محمود سماعة التليفون ليتصل بالوزراء واحداً بعد آخر يدعوهم للغداء على مائدته .. مقلدا أصوات خشبة ، ويفاجأ خشبة وضيفه بجميع أعضاء مجلس الوزراء يفدون إلى دار خشبة قبل الغداء بدقائق . ويضرب محمد محمود المائدة بقبضة يده وهو يصرخ :

— عملها حفنى ، عملها حفنى « بضم الحاء » .

حيدر باشا

ويطلب إليه أحد تجار الخشب أن يتوسط له عند حيدر باشا ، وكان وقتئذ قائد عام القوات المسلحة . يطلب اليه أن يحدثه في أمر ابن شقيقته العسكرى بالمشاه ، لكى يخلى سبيله .

وتصور أنت رجلا يطلب إليك أن توسط له قائد عام القوات المسلحة في أمر يتصل بجندى نفر في سلاح المشاه .. وينسى حفنى محمود الحكاية كلها ، ولكن الرجل يتعقبه .. فى الصباح وفى المساء . وفى البيت وفى المقهى ، وفى الشارع وفى كل مكان .

ويضيق حفنى محمود بالرجل فيعتزم أمرا وفى منتصف الليل أمسك حفنى محمود بسماعة التليفون وطلب حيدر فى منزله ، ودار الحديث الآتى :

— حيدر باشا

— أيوه ، مين ؟

— أنا عبد القادر جوده تاجر الخشب

— أى خدمة يافندم .

— أيوه ، عندكم الواد ابن أختى فى سلاح المشاه ، وعاوزك تديله اجازة .

ويفاجأ حيدر باشا بهذا الطلب الغريب من رجل لايعرفه بعد منتصف الليل ، فيسأل المتحدث :

— حضرتك عاوز مين ؟

— حيدر باشا بتاع الجيش .

— وعاوزه عشان الحكاية دى ؟

— آه ، إيه يعنى .. كبير حيدر باشا ؟

— لا : ولا كبير ولا حاجة ، بس اقفل السكة ..

— أقفل السكة ياللى ...

وانتهت المحادثة . ولكن بعد أن استمرت ثلاثة أيام متتالية وفى نفس الموعد .

ثم طلب حفنى من تاجر الأخشاب أن يذهب لمقابلة حيدر فى مكتبه بقصر النيل .. ويفرح الرجل ويذهب .

كانت الساعة قد بلغت الواحدة ظهرا وحيدر فى مكتبه عاكف على دراسة بعض الشئون الهامة ، حين دخل سكرتيره ليقول له ، أن بالخارج تاجر أخشاب اسمه عبد القادر جوده ، ويريد مقابلتك .

ويقفز حيدر عند سماعه الاسم ..

ونام تاجر الخشب عشرة أيام فى المستشفى بعد ذلك ، وكانت درسا قاسيا لن ينساه .

المؤلف العظيم

ورجل آخر يطلب من حفنى محمود أن يقدمه إلى أحد الأمراء السابقين ليتولى طبع كتاب له ضد حزب الأحرار الدستوريين (ولاحظ أن حفنى محمود من الأحرار) ويعتذر حفنى محمود ولكنه يعطى للرجل الرقم السرى لتليفون الأمير ويطلب إليه أن يحدثه فى الأمر .

ويتصل المؤلف بالأمير ، ويطلبه الأمير فى الحال ليطلع على أصول الكتاب ، فقد كان الأمير وقتئذ خصما لمحمد محمود ، وبين الاثنين عداوة شديدة .

ويطير الرجل من الفرحة ، ويهرول إلى قصر الأمير ويمسك حفنى محمود بسماعة التليفون ويتحدث إلى الأمير على النحو الآتى :

— ألوه ، أفندينا .

— أيوه ، مين .

— أنا المؤلف اللى كلمت سموك من دقيقة .

— أيوه ، عاوز أيه تانى ، أنا قلتلك تعال ..

— لا فيه حاجة واحدة بس عاوز أقولها وهى إنك حمار ومغفل . وانك تتمتع بأخلاق عربجية مش أخلاق أمراء .

ويرطن الأمير بكل لغات الأرض سبا فى صاحبنا المؤلف المظلوم ..

— خرسيس ، كلب بن كلب ، أوعى تيجى ، أحسن اقتلك ..

— لا ، وأنا هاجى رغم أنفك عشان أقول الكلام ده فى وشك ..

وينهى حفنى محمود المناقشة عند هذاالحد .

كل هذا ، وصاحبنا المؤلف يهرول سعيدا الى قصر الأمير ، وعندما بلغه كانت الساعة الخامسة بعد الظهر ، وكان أمام الباب أكثر من عشرة رجال سود من خدم القصر ، وفى أيديهم مقشات وعصى ، وأشياء أخرى ، فقد أمرهم بضرب المؤلف علقة ساخنة عندما يصل .

وما كاد المؤلف المسكين يلفظ باسمه حتى انهال جميع الخدم عليه ضربا وركلا حتى فقد وعيه .. وحتى أصول الكتاب مزقها الرجال السود .

الســـــر الحــقيقى

وخلال الأزمة التى نشبت بين عبد الفتاح الطويل ووزارة الوفد الأخيرة ، طلب حفنى محمود رئيس تحرير إحدى الصحف اليومية الكبرى ودار الحديث الآتى :

— آلو . أنا الطويل فيه مقال أرسلته للجريدة منذ دقائق وسيصلك حالا بعنوان .. « السر الحقيقى وراء الأزمة الوزارية » .

ويفرح رئيس التحرير للنصر الصحفى الكبير ثم يعود حفنى محمود إلى الحديث فيقول :

— بس والله قبل النشر تبقى تعرضه علينا .

— حاضر يافندم .

— وهكذا أعد المقال للنشر فى الصفحة الأولى . وفى الساعة الثالثة صباحا دق جرس التليفون فى بيت عبد الفتاح الطويل وكان المتحدث هو رئيس التحرير .

— عبد الفتاح باشا : صباح الخير .

— صباح النور يافندم ، إيه الحكاية .

— المقال بتاع معاليك أعد للنشر خلاص .

— مقال إيه ؟

— المقال اللى بعته .

— أنا ماكتبتش مقالات خالص . بعنوان إيه ده ؟

— « السر الحقيقى وراء الأزمة الوزارية » .

وينتفض عبد الفتاح الطويل من الغيظ ويصرخ فى وجه رئيس التحرير :

— لا .. أنا رايح أبلغ النيابة .

ويقدم فعلا بلاغا للنائب العام .. ولم يظهر المقال بالطبع .. وكشف التحقيق أن صاحب المقال هو حفنى محمود ..

أخطرها جميعا

ومن هذا النوع عمل حفنى محمود مقالب كثيرة ولكن أخطرها جميعا كان فى منزل أحمد الألفى عطية . وكان سيروح ضحيته صاحب المنزل .. لولا الصدفة وحدها .

كان حفنى محمود يسهر مع الألفى عطية فى منزله . وكان معهما كامل الشناوى ويوسف الشريعى . وفى الثالثة اعتذر

الشريعى عن اضطراره لترك السهرة لأن فى منزله ضيوفا من أسرة السعداوى ، أقوى القبائل العربية فى الأقليم ..

ويخرج الشريعى ، فيتصل حفنى محمود بمنزل الشريعى فيرد عليه واحد من الضيوف ، أفراد أسرة السعداوى . ويقول حفنى محمود :

— مين انت ، ادينى واحد مهم شوية ، واحد مهم شوية من فضلك ، ويأتى زعيم السعداوية ليرد عليه :

— إيه الحكاية .

— يوسف الشريعى مات ، الرجل اللى اسمه الألفى عطية ضربة بالنار دلوقت فى البيت اللى قصادكم على طول ..

ويخرج أفراد أسرة السعداوى جميعا مسلحين ، ويحاصرون بيت الألفى ، فقد قرروا قتله . لولا أن عاد الشريعى مرة أخرى إلى منزل الألفى عطية بعد أن ذهب إلى منزله فلم يجد أحدا من الضيوف ، وظن أنهم سافروا إلى الصعيد . ولكنه فوجىء عند عودته إلى بيت الألفى عطية بالضيوف جميعا يحاصرون المنزل ، وهم على أتم الاستعداد لقتله عندما يهم بالخروج .

إلى دســـــوق

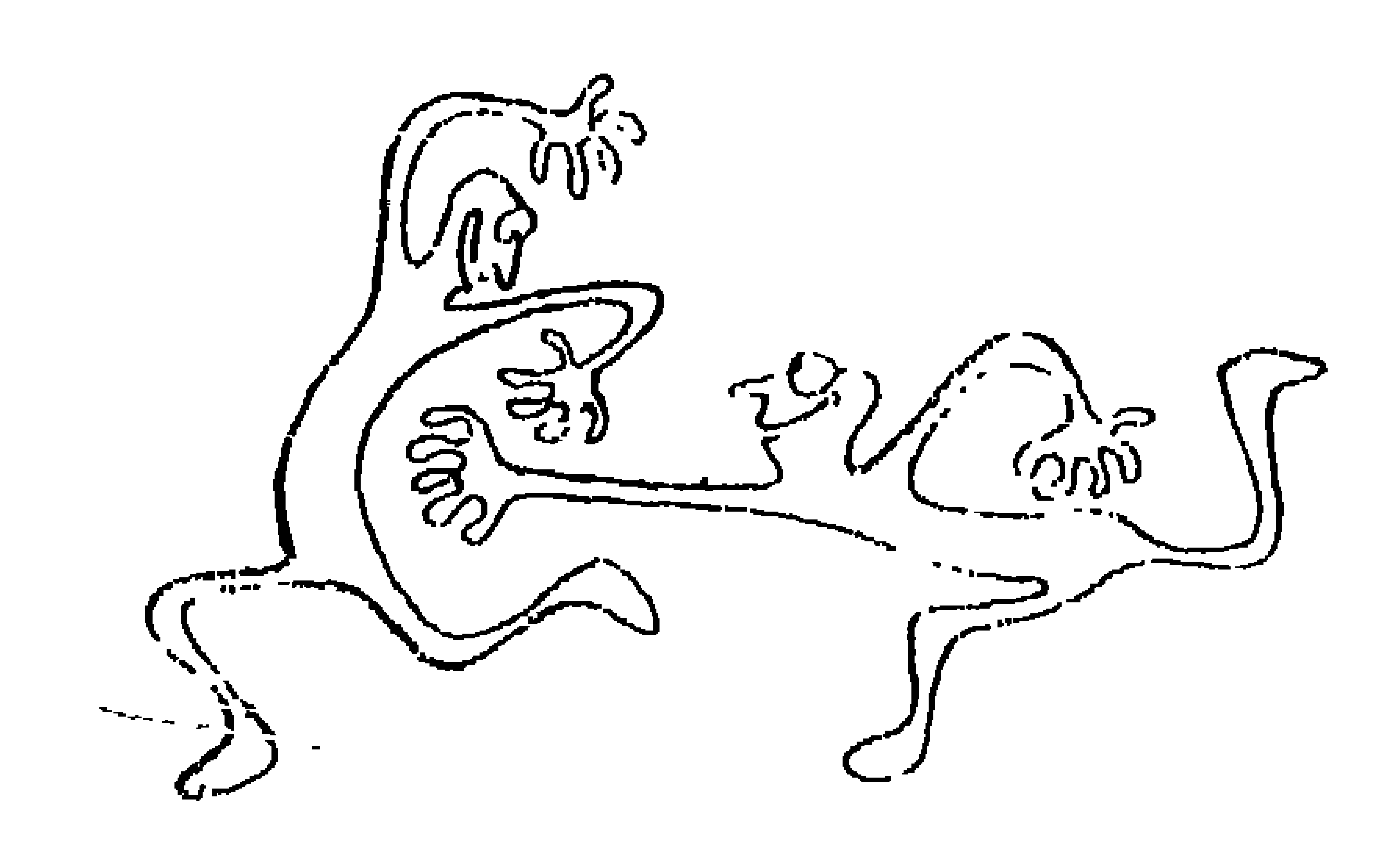
وبلغ من جبروته فى هذا الفن أنه استطاع أن يقنع رجلا صاحب صيدلية بالنوم فى فراش أحد المستشارين . وأن يفرق بين حافظ محمود وصديقه محمد الأسمر عاما ، وأن يقنع محمد محمود بضرورة تعيين أحد القضاة بالمعاش وزيرا ، لأن حفنى محمود كان يتضايق من وقاره الشديد أثناء جلسته فى بار اللواء ، وأن يتفق مع طه الفشنى وبطانته بإحياء ليلة مولد فى دسوق ، ويسافر الشيخ الفشنى ومعه

البطانة إلى دسوق فلا يجد أحداً بهذا الاسم الذى انتحله حفنى محمود .. عبده بك دبور .. ولكن حفنى محمود الإنسان يرسل فى اليوم التالى بمبلغ خمسين جنيهاً للشيخ الفشنى ، نفس الأجر الذى اتفقا عليه بصفته عبده بك دبور .

وهكذا عاش حفنى محمود إلى آخر أيام حياته يضحك من الناس ويضحك عليهم .. وكان يحب الليل .. فكان يسهره كله ولم يحدث أن أوى إلى فراشه قبل إشراقة الصباح .

النهـــــاية

وكما عاش خفيفا كالفراشة .. مات فجأة كالخيال . وهكذا خبا الضوء فى العيون الذكية . وجفت الابتسامة على الفم الذى لم يعرف فى حياته إلا الابتسام .





المازنى .. ثالث الفرسان

■■ المازنى الضاحك خير من يقول النكتة حتى ولو كانت على نفسه .. فهو الذى أطلق على نفسه وعلى الاستاذ العقاد رقم (١٠) فالعقاد طويل ، مفرط فى الطول كرقم واحد ، والمازنى قصير مثل الصفر .

ابراهيم المازنى

ثلاثة فرسان ظهروا فى عالم الأدب فى مرحلة دقيقة خطيرة .. مرحلة انتقال من عصر يقلد ويحاكى ويتمسك بالإطار القديم دون الموضوع ، لأن الموضوع لم يكن له وجود فى ادب المدرسة الاتباعية ، ثم جاء الفرسان الثلاثة فى هذه المرحلة الخطيرة التى أخذ الأدب فيها ينسلخ من أرديته القديمة ، إلى عالم جديد يهتم بالمضمون ويعنى بالتعبير عن النفسية الفردية ، والنفسية الجماعية على السواء وكان الفرسان الثلاثة هم : عبد الرحمن شكرى وعباس العقاد ، وابراهيم عبد القادر المازنى .

حياة صحفى

وعاش المازنى حياته يكتب ويؤلف ويترجم ويشتغل بالصحافة ، وكان المازنى قبل ذلك يعمل مدرسا ثم ناظراً لمدرسة ثانوية حتى قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩ فنزل المازنى إلى الميدان بقلمه ، يكتب كل يوم مقالا من نار فى صحيفة « الأخبار » مع الاستاذ أمين الرافعى ، وعندما توقفت « الأخبار » عن الصدور عام ١٩٢٥ ، وقف المازنى حياته على الكتابة والتأليف والاشتغال بالصحافة حتى مات فى أغسطس عام ١٩٤٩ .

وحـــياة أديـــب

وبين أغسطس عام ١٨٩٠ ، وهى السنة التى ولد فيها المازنى وأغسطس عام ١٩٤٩ عاش المازنى حياة ثائرة قلقة شديدة التأثر والانفعال .. وكان المازنى ساخراً .. ساخرا بالأوضاع ، ساخراً بالقيم المتحجرة التى صنعها بعض البشر ..

ومن خلال هذه السخرية ولد أدب المازنى الخالد .. خالد لأن أدبه كان مصريا ، فيه بساطة المصرى ومرحه وإيمانه الشديد بالقضاء والقدر .

وهذه النقطة بالذات ـ الإيمان الشديد بالقضاء والقدر ـ أخذها الكثيرون على المازنى وهاجموه طويلا ورموه باليأس ، ولكن هؤلاء المهاجمين نسوا أو تناسوا أن المازنى كان أصدق أدباء العصر الذى عاش فيه ..

صــــديق الجمـــيع

ولعل سر سخرية المازنى .. صورته .. فقد كان قصيراً نحيفاً أعرج من أثر حادث قديم .

ولعل أصدق وصف للمازنى ما كتبه هو فى مقدمة روايته الطويلة « ابراهيم الكاتب » فقال :

إننى سمح متواضع ، قانع ، سلس عطوف ، مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، أتلقى الحياة بغير احتفال ، وافتر للدنيا عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور يقطر من أطراف أصابعى كالعرق » .

وكان شغوفا جدا بكتابات الكاتب الأمريكى الساخر مارك توين ، واستطاع المازنى أن يجد لسخريته اللاذعة مجالا من المضمون المصرى الذى يعيش فيه ، فجاءت قصصه مصرية صميمة ـ بالنسبة لعصره ـ وأيضا بالنسبة لما ظهر

قبله ، قصة « زينب » لهيكل ، و « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى ، وساعده اشتغاله بالتدريس فترة طويلة على مخالطة الناس والاحتكاك بمختلف البيئات ، وملاحظة الأفراد ومراقبة سلوكهم ، ولذلك تعتبر قصص المازنى مرآة للعصر كله .

مدرسة المازنى

ولعل انتاج المازنى يعتبر القاعدة التى استند إليها كتاب القصة من الشباب فى جيلنا المعاصر ، وعناوين قصصه تدل على مدى التجديد والجرأة فى التجديد كذلك ، « ع الماشى » ، و « ميدو وشركاه » ، و « على الحديدة » ، و « الدكان » ، ويقحم العامية فى الأسلوب العربى أحيانا .

الوصف الصادق

والمازنى أيضا كان أصدق الكتاب فى وصفه ، ولم يصف الشمس مثلا بأنها كطبق من الذهب ، بل كان يتعمد اختيار وصفه من محيطه من الأشياء التى تقع عليها عيناه .

انه يقول مثلا : « أقدم من هرم خوفو » ، « معدتى طاعنة فى السنة كمخلاة قديمة » ، « أشكال ليس لها معارف كدرهم المسيح » .

وهو يصف زنجية فيقول :

فكأنها زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب ، وهو يصف الزواج فيقول :

« الزواج يشبه لبس الحذاء ، والأعزب كالذى اعتاد الحفا » .

وهو فى كتاباته سريع النكتة ، جملة قصيرة متلاحقة مثل طلقات الرصاص ، تماما مثل مارك توين وأوسكار وايلد :

«وكانت لا تريد أن تتزوج ، وصدقت فما تزوجت لأنها ماتت » .

« كانت مشاكله كثيرة ، حتى أنه كان لايملك إلا أن يبدو سعيداً » .

« كان شديد السكر ، حتى أنه كان يمشى متزنا » .

رقـــم ١٠

وعندما نترك المازنى الأديب ، نرى المازنى الضاحك خير من يقول النكتة ، حتى ولو كانت على نفسه ، فهو الذى أطلق على نفسه وعلى الاستاذ العقاد رقم ١٠ ، فالعقاد طويل ، مفرط فى الطول كرقم ١ ، والمازنى قصير مثل الصفر .

وحدث مرة أن هوجم المازنى والعقاد وواحد من أسرة النشاشيبى فى مدينة القدس ثم أطلق عليهم مجهول النار ثم انطلق هاربا ، وأثناء إطلاق الرصاص انطرح العقاد أرضا ، وأطلق النشاشيبى ساقيه للريح ، وبقى المازنى مكانه ، وسألوه بعد ذلك عن سر ثباته أمام الرصاص فأجاب :

— أنا خفت أجرى .. الراجل يشوفنى ! ..

القصـــة بقـرش

وكتب مرة فى مقدمة كتاب له يحوى عدة قصص قصيرة يقول :

« يحوى هذا الكتاب عشر قصص قصيرة ، سهرت فى كتابتها الليالى الطويلة ، ولقيت فى طبعها عنتا وأرهاقاً ، وقدمته لك أيها القارىء بعشرة قروش ، أى أن القصة الواحدة لا تساوى إلا قرشا واحدا » .

لتقـوية الطـرق

وروى مرة أنه ذهب إلى طبيب أذن يشكو إليه من صمم

جزئى ألم به ، ودلل للدكتور على صحة شكواه بأنه لايسمع جيدا الطرق على الباب ، فوصف له الطبيب دواء مقويا للسمع ، وبعد فترة طويلة سأله الطبيب عن حاله ، فأجاب على الفور :

— أبدا ، ودانى زى ما هية ولكن باسمع الخبط على الباب كويس ، يظهر أن الدواء بيقوى الخبط !

إعمـــله بالطـــو

وحدث أن اشترى العقاد صديريا جميلا من فلسطين ، ورآه المازنى فأعجب به جدا ، فقال للعقاد :

— أنت لازم تجيب لى صديرى المرة الجاية ، أعمله بالطو ..

داس على طربوشى

ودخل المازنى مرة مذعورا داخل « دار الهلال » يسأل كل من يلقاه :

— ما فيش واحد طويل دخل هنا ؟!

ولما سألوه عن سر لهفته فى السؤال عن الرجل الطويل أجاب :

— أصله خلانى ماشى وداس على طربوشى .

مـــلاهـا مـنى

وأعطى ساعته لساعاتى « يملؤها » له ، وبعد أن تسلمها اكتشف انها ما زالت على حالها تؤخر تارة ، وتقدم تارة أخرى ، فقال المازنى :

— الراجل أديت له الساعة يملاها ، يظهر أنه ملاها منى ..

نســـــخـة

وأهدى مرة نسخة من كتابة الى أحد الأصدقاء ، ووعده الصديق بقراءته ، ثم مضت فترة طويلة والصديق يعتذر عن عدم قراءته ، وقابله المازنى ذات يوم ، فسأله فى جد بالغ :

— أنت كنت بتعوم فى النيل امبارح ؟

— ليه ؟

— أصلى لقيت نسخة من كتابى فى الميه !.

عشــان العــيل

وجاء مرة المازنى إلى بعض أصدقائه فقال لهم فخوراً :

— تعرفوا النهاردة أنا حميت فلان من « علقة » كان راح يأكلها ..

وتساءل الأصدقاء جميعاً فى دهشة :

— ازاى ؟ ..

— أنا ماشى مع فلان واتشاكل مع واحد تانى ، والراجل حلف لازم يضربه « علقة » لحد ما يموته .

— وبعدين ؟ ..

— وبعدين الراجل بص ناحيتى وقال :

— طيب حاسيبك عشان خاطر العيل اللى معاك ..

الأديب والإنســان

وهكذا كان المازنى الإنسان ، خفيف الظل ، حلو النكتة ، حاد السخرية مثل المازنى الأديب ، غير أن المازنى الأديب لازمته مسحة من التشاؤم جعلته يقول فى مقدمة كتابه « حصاد الهشيم » :

ما مصير كل هذا الذى سودت به الورق وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ؟ .. إنه كله سيفنى ويطوى

بلا مراء ، فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ، وتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم .

ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ .. فلندع الخلود إذن ، ولنسأل :

— كم شبرا مهدنا من الطريق ؟

ولكن هل هذا كلام متشائم .. ؟

أبدا ، أنه من خلال تشاؤمه يبدو متفائل النظرة إلى المستقبل واثقا كل الوثوق من سعادة الأجيال المقبلة ، فخوراً بالاشبار التى مهدها فى الطريق الشاق الطويل نحو المستقبل الزاهر .

ويكفى المازنى أنه مات بعد أن مهد شوطا طويلا ، واستطاع بحق ان يصبح على رأس كتاب القصة الطويلة والقصيرة فى بداية القرن العشرين ، ويكفيه إنه مهد الطريق لغيره ..

وصحيح ان المازانى مات ..

ولكن ، بقى انتاجه ، وظلت البشرية وستظل ، سعيدة بانتاجه ، مقدرة للأميال الطويلة التى مهدها من الطريق .

* * *

كوكتيل .. من التاريخ

■■ ضاق بالحياة وبالناس فاعتزل العالم
وانزوى وحده يجتر مصيره فى
صمت ، ولم يلبث ان ضاق بنفسه ،
فراح يهاجم نفسه بعنف .. !

شفيق المصرى

رثاه أحد الكتاب بعد موته فقال : « أخيراً مات الرجل الضاحك ، وانطبق الفم الذى لم يفارقه الابتسام »

فكان يتحدث مبتسما ، ويأكل مبتسما ، وينام مبتسما ، ويبكى مبتسما ، وأغلب الظن أنه لقى عزرائيل بنفس الروح التى كان يلقى بها الحياة .

ولم يكن هذا الرجل .. إلا حسين شفيق المصرى ، ولقد كان حسين شفيق المصرى مدرسة فى فن السخرية ، سخر من كل القيم التى كانت تسود عصره ، سخر من كل الأوضاع ، وسخر من الناس ، وسخر من نفسه ، وسخر من النظام ، وسخر من القانون ، وغالى أحيانا فى سخريته ، فانقلبت إلى تهريج .

ولكنه كان بالرغم من ذلك ، أبرع من استخدم النكتة كسلاح وأعظم من عالجها كفن .

سيبويه المصرى

ولقد تألقت وتبلورت فى حسين شفيق المصرى روح مصر على مر السنين .. فهو سيبويه المصرى الذى كان يطوف الأسواق ممتطيا حماراً يخطب فى الناس ساخراً بكافور ، وهو الأسعد بن مماتى الذى ألف الفاشوش فى حكم قراقوش ،

وهو ابن سودون المصرى الذى أضحك الناس وأبكاهم أيام المماليك ، وهو امتداد ليعقوب صنوع وقبس من شعلة النديم ، ومزيج من البشرى ، والعبد ، والبالى ، وكل من سبقوه .. ولكن هذا الثائر الساخر سقط سقطة شنيعة لم يهو إليها أحد .. فكان من أعنف الذين هاجموا سعد زغلول ، وكان ميدانه مجلة « الكشكول » .

ولو أننا نظرنا إلى هذه السقطة من زاوية أخرى ، لراعنا شيء غريب .. فهذا الثائر الساخر الذى أختار طريقا معاديا للشعب ، قدر له أن يكون الرجل الوحيد فى مصر الذى يكتب هجوما مرا ضد سعد زغلول ، ومع ذلك يقرأه الناس ، حتى أخلص رجال الوفد ، وحتى أخلص شبابه حماسة وإيمانا به .. وهنا تبرز عظمة حسين شفيق المصرى كفنان ..

ولقد كان سعد زغلول يتمتع وقتئذ بشعبية ساحقة ماحقة حتى لقد قال البعض : كانت إشارة واحدة من سعد ، تكفى لإشعال نار الثورة ، وإشارة أخرى تكفى لإخمادها ، وكان سعد ساحر الشخصية عملاق الزعامة ، كلماته أوامر وأوامره قوانين وخطبه أقدس من المعلقات السبع ، وكانت أعظم الصحف انتشاراً تقتلها إشارة عن سعد وأعظم الأفكار قوة ، تسحقها كلمة من سعد . وعندما اصطدم فن شفيق المصرى بزعامة سعد زغلول ، كان الصدام رهيبا ، ولكنه أثبت على أية حال أن الفن الأصيل أقوى من الزعامة ، وأمضى سلاحا من كل أسلحة الزعيم ..

ففى الوقت الذى كانت فيه الجماهير تحتشد فى فناء بيت الأمة تستمع مشدوهة إلى خطبة الزعيم .. كان كل فرد منهم يخفى بين طيات ملابسه نسخة من مجلة « الكشكول » ليقرأ فيها بعد الانتهاء من سماع خطبة الزعيم « نكت » حسين

شفيق المصرى عن الزعيم نفسه .

ولكن من هو حسين شفيق المصرى ؟ .. ومن أين جاء هذا الفتى الطويل النحيل صاحب الملامح التركية ذو اللسان الطويل .. أغرب شىء ، أن حسين شفيق الصمرى ليس مصريا ، وهى ظاهرة غريبة أن يكون أعظم اثنين كتبا اللغة العامية واستخدماها كما لم يحدث من قبل ولا من بعد ، أغرب شىء ين يكون هذان الاثنان ليسا مصريين .. فأحدهما تونسى وهو محمود بيرم التونسى ، والثانى تركى .. وهو حسين شفيق المصرى .

ابــن البـــلد

كان أبوه محمد بك نور نموذجا للتركى المتعجرف المتلاف ، كان يملك عزبة فى قليوب .. وعندما مات ، كان قد فقد كل شىء تقريبا .. الأرض ، والقصر ، والخيل .. وذهب إلى القبر ، وكل حصيلته فى اللغة العربية عدة كلمات لاتكفى لتكوين جملة مفيدة ، وكانت أمه إقبال هانم جارية أخذت ضمن السبايا فى حرب المورة وبيعت فى مصر واستقرت فى قصر الأميرة أمينة هانم أم الخديو عباس ، ومن هذا الخليط اليونانى التركى ، جاء حسين شفيق المصرى .. أعظم ابن بلد مصرى ظهر فى النصف الأول من القرن العشرين ..

ولقد كانت حوارى الدرب الأحمر ومقاهيه وأسواقه والأزقة المتفرعة منه والشوارع الضيقة التى تصب فيه هى وحى حسين شفيق المصرى والهامه .. فهو صديق سيد المكوجى ، وجليس عم أمين القهوجى ، وجار حنفى الكمسارى ، وحسنين العسكرى ، ومن هؤلاء النلس تزود حسين شفيق المصرى بثقافته الشعبية ، ومن دواوين شعر

امرىء القيس ، وطرفة ، والأعشى ، وجرير ، والفرزدق ، والمتنبى ، وابن الرومى ، والجبرتى ، وأبى العلاء .. تزود بثقافته العربية ، ومن هاتين المدرستين استحدث حسين شفيق المصرى فنه الخالد الرفيع ..

وبينما كان يجلس فى أول الليل فى بار فقير فى سوق الخضار ويوزع الكئوس والنكات على الحاضرين ، كان يقضى آخر الليل يجمع أوزان الشعر المهجورة بتكليف من أمير الشعراء أحمد شوقى .

وعلى هذا الازدواج ، سيظل حسين شفيق المصرى أبدا .. فهو حجة فى اللغة العربية ، وهو عالم فى اللغة العامية ، وهو من أسرة غنية ، وفقير يتضور جوعا ، وهو من أم يونانية ، وأب تركى ، وهو نفسه ابن بلد قاهرى .. تربية أرصفة ومقاهى تعبق برائحة الحشيش ، وهو محرر بجريدة الجوائب التى كان يصدرها خليل مطران ، ومحرر بجريدة « مصر » وفى الوقت نفسه فى مجلة « الشجاعة » و « الخلاعة » و « المسامير والسيف » وهو مؤلف مسرحى كتب روايات جديدة لمسرح نجيب الريحانى ، وهو شاعر ماجن ، متفرغ لكتابة الشعر « الحلمنتيشى » وهو يكتب ضد سعد زغلول فى مجلة « الكشكول » ويكتب مع سعد زغلول فى مجلة « الصاعقة » وهو يربح آلاف الجنيهات ، ويموت وليس فى جيبه مليم .

ولقد دخل حسين شفيق المصرى التاريخ بمشعلقاته السبع .. على وزن المعلقات السبع .. وكانت أبرزها مشعلقته الشهيرة التى عارض بها معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد
يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

والذى لاشك فيه أن حسين شفيق المصرى كتب مشعلقاته ليس بغرض التقليد والمحاكاة وإضحاك الجماهير ، ولكن هذه المشعلقة كانت تحمل رأيه فى هذه القصائد التى أنفق الشعراء عمرهم فى صياغتها .. استمع إليه يقول فى مشعلقته الشهيرة :

لزينب دكان بحارة منجد
تلوح بها أقفاص عيش مقدد
وقوفا بها صحبى على هزارها
يقولون : لا تقطع هزارك واقعد
أنا الرجل الساهى الذى تعرفونه
حويط ، كجن السحلفة المتلبد
فمالى أرانى وابن عمى مصطفى
متى أدن منها ينأ عنها ويبعد
يقول وقد ألقى الرغيف وسابنى
الست ترى جوزها عويس بن أحمد
فلما تناغشنا الغداة وهزرت
معانا ، وأعطتنا بارولا بموعد
رأت زوجها يدنو فغطت « بزازها »
بشال طويل « كالملاية » أسود
وقالت : يالهوى جتكم نيلة امشوا من هنا
أفندية أيه دول ؟ جوزى شايف دا شىء ردى
فأقبل زوج البنت يلعن أمها
ويسعى الينا « بالمداس » المهربد
فلا خير فى خبص ترى الضرب بعده
ولا هاجم يأتيك بعد الترصد
ستبدى لك العصيان ما كنت جاهلا

ويـأتيك « بـالمـركـوب » من لم تهـدد

ومن قصائده التى سماها « المشهورات » قصيدة نظمها على نهج قصيدة « ابن الخياط » التى يقول فيها :

خـذا من صبا نجـد أمامـا لقلبـه
فقـد كـان ريـاهـا يطيـر بلبـه

قال حسين شفيق المصرى :

ولم ينهـه عنها الـزمـان ولا النـوى
ولـم يلـهـه عنـا تقـزقيـز لبـه
فبـات ينـاجـى النجم طـول ليلـه
ويشكـو إلى الحيطـان شـدة غلبـه
وهـل يشتكى النـاس مـدقـع فقـره
وقـد جاع يشكـو من فداحـة حبه
وقـد تعبت عـزالـه فـى غـرامـه
وتـعـب أصحـاب الفلـوس بنصبـه
ويـا ويحـه اذ يصبـغ الشـعـر
تلـفمطـه حتـى تنـادى بشيبـه
ومن يـك ذا شيب ويصبـغ فـإنـه
إذا قـال صـدقـا زيفـوه لكـذبـه

* * *

ولقد ظل حسين شفيق المصرى يتدحرج طول حياته ويتقلب فى مهن كثيرة ، من كاتب محام إلى مصحح فى الجرائد إلى زبون دائم أحيانا فى مقاهى القاهرة وعلى أرصفتها الشهيرة ، ومن خلال هذه المهن الغريبة استطاع العبقرى أن يرى الحياة كما لم يرها أحد من قبل .. فقد كانت له مهنة واحدة غير رسمية ، هى مراقبة الناس وملاحظة عاداتهم الرديئة ، واستطاع أن يقدم للأدب الشعبى

المصرى شخصية خالدة « لابن البلد » ألجاهل المتعافى « الحاج درويش » و « للست المصرية » المشاكسة المشاغبة « أم اسماعيل » ، وكان كتابه « الحاج درويش ، والست أم اسماعيل » هو خير كتبه وأكثرها صوتا وحرارة وفهما بطبيعة الروح المصرية على الإطلاق .

وكان حسين شفيق المصرى عالما باللهجات ، لهجة الصعيد ولهجة الفيوم ، ولهجة المنوفية ، ولهجة الاسكندرية ، ولم يقتصر علمه على معرفة اللهجات المحلية المنتشرة فى أقاليم مصر الكثيرة .. بل تعدتها إلى خارج الحدود .. وقد هب فجأة ذات مرة لينقد بأسلوبه الساخر المرير انتشار اللغة الفرنسية بين أهل لبنان العرب .. فكتب خطابا من لبنانى إلى آخر « مونامى مجاعص .. بعد السلام .. أعرفك يا مون فرير أن الهيجين تبعى تربيان .. وفقط عندى جراند زعل من حكم الفرنساوى .. وبيكون بعلمك أنى دومان رايح شان أشوف حال المون بير وأكتب لك ليتر بالإيروبلان ..

ما قــل .. ودل

وخاض حسين شفيق المصرى ميدان الزجل وما قل ودل هو خير عنوان يمكن أن نطلقه على أزجاله .. فقد كان مثلا فى هذا الميدان لسبب لا ندريه .. والملاحظة الغريبة انه كان يفر إلى ميدان الزجل كلما اشتد الإرهاب فى مصر واشتدت قبضة الرقابة على الصحف الوطنية . وبرغم أنه كان ضد سعد زغلول وكان ضد الوفد المصرى بحكم أكل العيش إلا أنه كان فى الحقيقة وطنيا وثائرا ..

ذلك أنك لا تستطيع أن تكون ساخرا إلا وأن تكون ثائرا فى الوقت نفسه .. لأن السخرية لون من ألوان الثورة ..

يقول حسين شفيق المصرى فيزجل رائع :

أول ما نبدى القول نصلى على النبى .
نبينا محمد جانا بالإسلام .
يقول أبو زعيزع وله قول صادق
براهينه ظاهرة والأدلة تمام
يا بوزيد أنا بوى دياب بن غانم
يناوش العدو ومايتركوش ينام
لحد ما نمشى من البلد دى ونرحل
دى عيشتنا فيها يا بوزيد حرام
تعالى نروح من مصر نقصد تونس
نشوف فيها أقوام غير دى الأقوام
دى مصر يا بويه بلاد العجايب
وخيراتها للأرمن والأروام
وللانجليز رخرين ولكن خايف
أروح بكلامى شخة فى حمام

ولقد عاش حسين شفيق المصرى حياة أقرب ما تكون إلى حياة أبى نواس .. أعزب لم يتزوج .. سكير لا يفيق .. مبذر أنفق نقوده وانفق صحته وانفق أيامه فيما لا يفيد ولو أنه تفرغ للمسرح .. لكان لدينا الآن تراث مسرحى كوميدى من أعظم طراز .. ولو أنه القى بنفسه فى خضم الثورة .. لاستطاع أن يصنع مع بيرم التونسى انقلابا فى مصر ولاستطاعا معا أن يصوغا الحياة فى مصر كما يحلم بها الثوار .. ولكنه لم يتفرغ لشىء ولم يهدأ ولم يستقر .. وظل يتدرج من أعلى إلى أسفل حتى وصل إلى القاع . ولكن فنه الأصيل رغم الضياع كان يشده دائما الى الحياة التى تموج من حوله .. ينقد مظاهرها المختلفة نقد فنان أصيل .

وفى نهاية أيامه رفع هراوة ضخمة وهوى بها على رأس الحكومة التى كانت قائمة وقتذاك ..

ان الفنان حسين شفيق المصرى ينقدها وينقد رجالها ونظمها وتقاليدها .. فيبتكر شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود .

الشـــاويش شـــعلان

ومن خلال المسكين شعلان .. انصبت هراوات شفيق المصرى على كل ما فى الحياة من تناقضات بشعة وقيم زائفة . ويكتب شفيق المصرى على لسان الشاويش شعلان محضر التحقيق الحكومى .

« فى تاريخه أدناه وأعلاه .. أنا الشاويش شعلان عبد الموجود شاويش آه يا نارى .. فى الساعة كذا وأنا جاعد فى الجسم حضر جدامى جدع طويل عريض زى الشحط متهم فى جناية خطف فرخة .. وبعدين سألناه عن أسمه وعن رسمه وعملنا المحضر اللازم » .

* * *

ومن خلال الأسئلة والأجوبة تبدو براعة شفيق المصرى فى كشف عورات النظام الاجتماعى الذى كان يرزح تحت عبئه الشعب .. وكذلك تبرز أصالة شفيق كفنان . وعبقريته فى الغوص الى أعماق المأساة التى كانت تعيش فيها مصر .

ومن خلال « محكمتنا العرفية » يحمل شفيق المصرى حملة لا هوادة فيها على كل ما هو بشع وحقير فى حياة الناس .. انه يهاجم الشركات فى عنف .. ويهاجم النظام الرأسمالى كله بلا رحمة .. وبطريقة فنية لا تغفل الحقائق

العلمية ـ التى تحول المجتمع الرأسمالى إلى معتقل كبير للشعب ..

ويهاجم شفيق المصرى الحرب .. ويهاجم الاستغلال والاستبداد والبطالة والخوف والجهل .

ولم يكتف شفيق المصرى بنقل المجتمع وهدمه عن طريق القلم .. بل أنشب فيه لسانه ، وكأنما وجد ميدانه الحقيقى هنا ، فاكتفى به فى آخر أيام حياته ـ وأطلق مئات النكات تنهش فى كيان المجتمع وتنز فيه كالسوس ، وأصبح يرتاد المقاهى منذ أن تعطل وشاخ وفقد بصره ، وبدا الرجل العجوز وكأنه فقد كل أسلحته فى الحياة إلا سلاح النكتة يشهرها على أعدائه ، فراح يهاجم أدعياء الأدب والفن ، ثم راح يهاجم الأدباء أنفسهم ، ثم انبرى يهاجم الأحبة والأصدقاء ، واحتمل الناس دعاباته أول الأمر ثم ضاقوا بها وضاقوا به ، ويبدو أنه ضاق هو الآخر بالناس وبالحياة ، فاعتزل العالم ، وانزوى وحده يجتر مصيره فى صمت ، ولم يلبث أن ضاق بنفسه ، فراح يهاجم نفسه بعنف .

الابتسامة الأخيرة

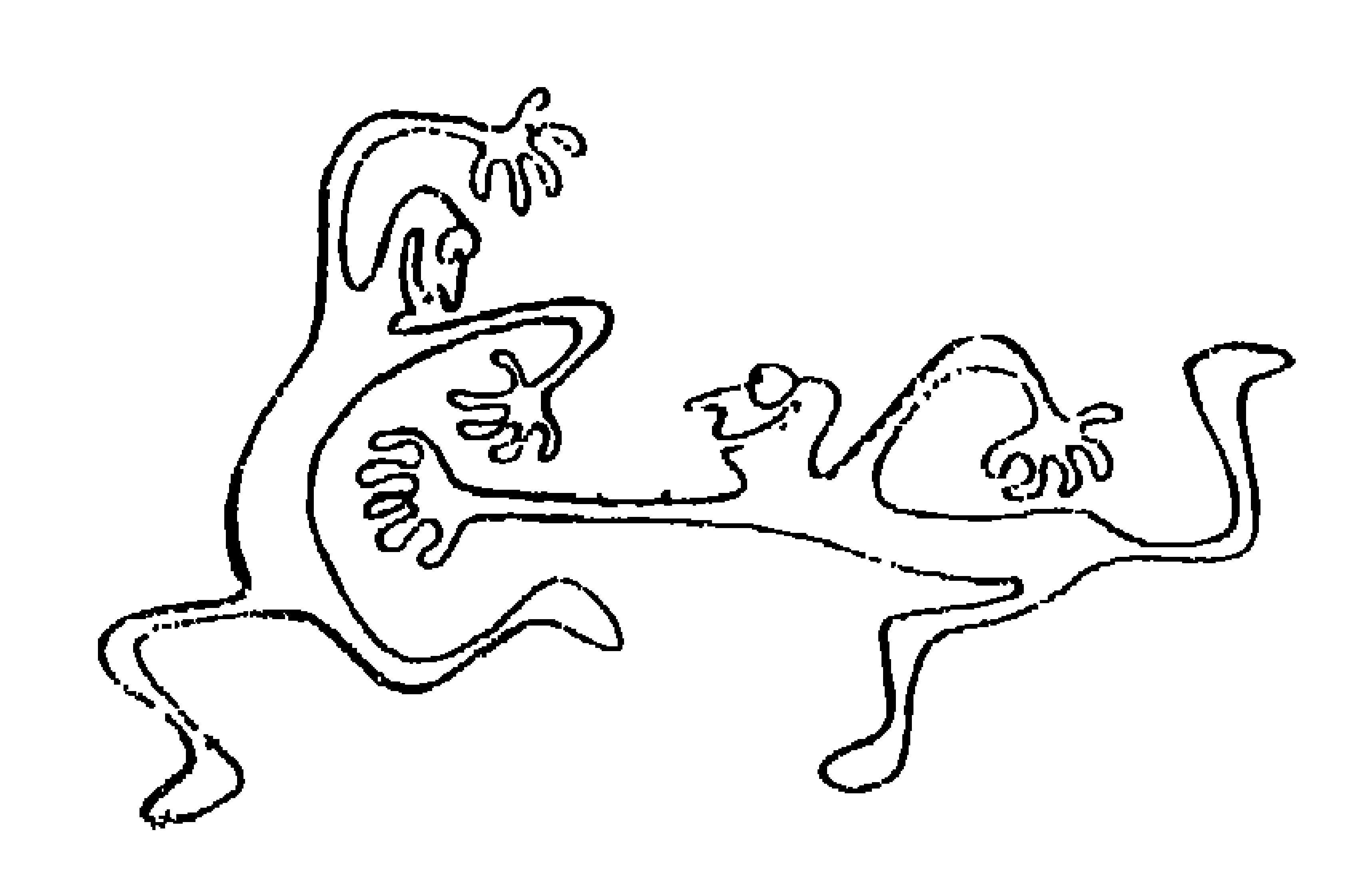
ولعله وهو فى عزلته التى فرضها على نفسه تذكر تلك الأيام البعيدة من حياته .. عندما كان سعد حيا ، والثورة تجرى فى البلاد وتفور ، والشعب يتدفق كالسيل ، وربما رن فى أذنيه هتاف الجماهير يملأ الجو وصيحات الجموع تتصاعد إلى السماء ، وربما تذكر الجانب الذى اختاره بحكم الظروف ، ووقف فيه ضد الشعب وضد سعد ، وربما ضاق شفيق المصرى بنفسه من أجل هذا السبب ، وربما كفرت المحنة عن ذنب الرجل ، وربما مات مستريحا .

نعم ، ربما حدث ذلك ، وربما كان هذا الذى ذكرناه مجرد وهم جال بخاطرنا ولم يخطر على ذهن شفيق المصرى أبدا .

ولكن الشىء المؤكد والشىء الثابت .. هو أن شفيق المصرى مات مبتسما . فقد التقى به أحد أصدقائه قبل وفاته بيوم واحد ، وكان قد فقد بصره تماما وأصبح أعمى ، وتطوع شاب من أقربائه لمرافقته ، ولما سأله الصديق عن الشاب الذى يرافقه .. أجاب شفيق :

— دا واحد ساحبنا .

وفى اليوم التالى .. سحبه عزرائيل إلى الأخر ..
أنا شخصيا أرجو أن يكون قد سحبه إلى الجنة.





محمد البابلى

■■ وكان « مسيو كل شىء » المصرى اسمه « محمد البابلى » ابن عبده بك البابلى شيخ تجار الجواهر في ذلك العصر . وكأنما أفادته مهنة أبيه في فنه ، فكانت نكاته وغمزاته وقفشاته أشبه بسبائك رشيقة أنيقة لامعة .

أنا حر في شنبي

المركب الكبير يعبر البحر إلى بور سعيد ، على ظهر المركب سفراء فى طريقهم إلى الشرق الأقصى ، وعلماء آثار يبحثون عن حضارات عريقة بين أطلال الشرق ، وأثرياء يطوفون حول الأرض ، ورجال أعمال ، ورجال مخابرات . ورجال فقط . ونساء أنيقات ، ورشيقات ، ومعطرات ، ولكن رجلا واحدا فقط بين هؤلاء جميعا ، كان يثير الغيظ ويثير الإعجاب معا ، وكان هذا الرجل قومسيونجى صغير ، وكان اسمه « كل شىء » أو هكذا اطلق عليه الكاتب العالمى سمرست موم .

« بتـــاع كلـــه ! »

وكان مسيو « كل شىء » يعرف كل شىء ، ويحترف كل شىء ، فهو خبير فى لؤلؤ البحر الأحمر ، وهو عالم فى الرياضيات . واستاذ فى علم طبقات الأرض ، ولاعب كرة قدم ، وممثل سينما . وخطيب ، وقومسيونجى شاطر ، وهو سائح ممتاز ، يعرف كل شوارع المدن الشهيرة ، ويعرف مطاعمها ، وملاهيها ومفاتنها ، وهو مغامر ، له فى عالم النساء تاريخ !

وهو أيضا أديب ونديم وظريف يعرف كل النكات التى تضحك لها جميع أمم الأرض .

وهذا المسيو كل شىء الذى رسمه « موم » ببراعة ، كان له فى مصر نظير ، رجل من المحلة الكبرى ، كان ضابطا فى

البوليس ، وكابتن فى كرة القدم ، وعازفا على العود ، وطباخا ماهرا ، وثريا يضارب فى البورصة ، ومقامرا أنفق معظم لياليه وأكثر ثروته على المائدة الخضراء ، ومزارعا يملك ضيعة وقصرا فى الريف ، وكان ظريفا لاذع النكتة ، أضحك الناس وأدهشهم وسخر منهم ، ثم تبخرت ثروته فسخر من الزمان ومن نفسه .

وكان « مسيو كل شىء » المصرى .. اسمه محمد البابلى ابن عبده بك البابلى شيخ تجار الجواهر فى ذلك العصر . وكأنما أفادته مهنة أبيه فى فنه ، فكانت نكاته وغمزاته وقفشاته أشبه بالسبائك ، رشيقة أنيقة لامعة . ولم تكن سخريته نتيجة سخط ، فهو ثرى أمثل ، وهو يحيا حياة الأمراء ، وهو ينفق الألوف ، ويبعثر المئات على موائد القمار ، وعلى الأصدقاء ، وكانت له شلة تجتمع كل مساء فى ركن خاص فى حلوان ، وكان البابلى يعد طعام الشلة بنفسه ، فقد كان كما ذكرت من قبل .. يجيد طهى الطعام . وكان من بين أفراد الشلة .. عبد العزيز البشرى وحافظ عوض ووحيد الأيوبى ، ومحمد المويلحى صاحب كتاب عيسى بن هشام ، وكانوا جميعا يتمتعون بمكانة فى المجتمع .

النكتة .. للنكتة !

ولقد كان من الطبيعى أن تكون سخرية البابلى ـ من أجل هذه الظروف وبسببها ـ سخرية هادئة ، فيها فن أكثر مما فيها من مرارة ، ولو كان النقد تناول النكتة على أنها عمل أدبى يؤدى دورا فى الحياة لقلنا إن البابلى كان من أنصار النكتة للنكتة ، بعكس شفيق المصرى مثلا ، الذى كان يعبر بنكاته عن وجهة نظره فى الحياة . ولهذا السبب أيضا خلت

كل نكات محمد البابلى (كتاب محمد البابلى لمحمد الصباحى) من كل ما يمس النظام الاجتماعى القائم حينذاك ، أو النظام السياسى ، فلم تكن النكتة عنده سلاحا ، كانت ترفا ، يرفه بها عن نفسه ، ويرفه بها عن الآخرين ، وكانت آخر الأمر صورة تعكس حياته المطمئنة الوادعة !

وهناك نكتة شهيرة لمحمد البابلى تصور اتجاهه هذا بوضوح ، وهى نكتة قيلت فى مناسبة هى أقرب إلى المأساة منها إلى الملهاة ، ومع ذلك لم تدرك موهبته الناعمة عمق الموقف ولا مغزاه ، فمست نكتته السطح ولم تنفذ إلى الأعماق .

كان له تابع يدعى سنقر ، وكانت علاقته بالبابلى مشبوهة ، فقد كان يدبر له أمر الليالى الحمراء ، ويبحث له فى كل يوم عن صيد ثمين ، وباختصار ، كان يقوم للبابلى بنفس الدور الذى كان يقوم به بوللى للملك السابق فاروق .

وجاءه جماعة من الصحاب فى المساء وجلسوا يلعبون ويشربون ثم قال أحدهم مندهشا :

— تعرف يا محمد بك ، احنا اكتشفنا امبارح سر خطير . ويستفسر محمد البابلى من صاحبه عن السر الخطير ، فيجيبه ضاحكا والدهشة لم تفارقه بعد :

— امبارح بس عرفنا ان سنقر يحفظ القرآن ، كان معانا فى المأتم وبعدين الفقى غلط فكشفه وصحح الآية ..

حكاية كما قلت تصور مأساة ، رجل يحفظ القرآن تدفعه الظروف وتجبره على احتراف مهنة وضيعة ، كيف حدث هذا ، ما هى الظروف التى أدت بالمقدمات إلى غير النتائج التى كانت متوقعة ؟ أى مأساة عنيفة هى التى أتت برجل

يحفظ القرآن إلى أن يعمل قوادا لمحمد البابلى .

أسئلة لم تخطر ببال البابلى على الإطلاق ، ولكن المفارقة تهزه فيقول نكتة ، نكتة رشيقة وأنيقة ولامعة .. ليس إلا ، نكتة رجل ليس من طبقة سنقر ، بل لعله يزدريها ويحتقرها ..

استمع إلى محمد البابلى يعلق على الموقف بنكتة :

— لازم الفقى كان بيقرأ فى سورة النساء .

وعلى هذا الطراز تأتى نكت البابلى كلها . نكت خفيفة سريعة تمليها المناسبة ، عمادها مقدرة فائقة عند البابلى على التلاعب بالألفاظ ، ولكنها لا تهتم بالمضمون ولا تعنى به ..

* * *

كان يلعب الطاولة مرة مع صديق ، فيلعب لعبة لم تعجب خصمه ، فيسخر منه قائلا :

— بقى دى لعبة يا سى بابلى ، أمال إيه الفرق بينك وبين الحمار ؟

ويرد البابلى على الفور :

— مافيش فرق بينى وبين الحمار غير الترابيزة ..

* * *

ويجلس فى بار بالعتبة ، وعلى مقربة منه يجلس رجل رث الثياب زرى الهيئة ، يعب الخمر بشراهة ، فيصيح فيه البابلى :

— يا راجل ارحم نفسك ..

ويقول الرجل وهو نشوان :

— أرحم نفسى إيه يا بيه ، ما تشوف لونها .. ياقوتى .

ويرد البابلى على الفور :

— أيوه يا خويا ، النهاردة ياقوتى ، وبكره يا .. قوتى

(من القوت) .

* * *

مهارة لفظية ليس أكثر ولا أقل ، وبراعة فى استخدام التورية بلا تكلف ولا عناء ..

ويعهد إليه والده وهو شاب بقطعة أرض ليستغلها بنفسه ، ولكنه يسىء استغلالها ، فيطلب إليه الوالد أن يترك الأرض ، وفى مناقشة عاصفة يثور الوالد على محمد البابلى :

— انت مش نافع ، انت مش بتاع شغل ، انت بتاع سهرات بس وبتاع لف ودوران . الأرض دى بتاعتى ولازم تسيبها أو أطردك منها ..

ويسكت محمد البابلى ويعبث بشاربه فى حركة عصبية .. ويثور الوالد ويصرخ فى وجهه مؤنبا :

— مش عيب واقف تلعب فى شنبك قدامى ..

ويجيب محمد البابلى فى ضيق :

— وهو بتاعك راخر .

ويضحك الوالد حتى يقع على الأرض ، ويتركه يعبث فى الشارب ، ويعبث فى الأرض .

* * *

ويضايقه رجل أحيل على المعاش ، يضايقه بزيارته ، ومرافقته والبابلى يضيق بصداقة الرجل المفروضة عليه فرضا .. ولكن حياءه يمنعه من مصارحة الرجل ، ثم ينتهز فرصة حين يلتقى بصاحب مطبعة ويكلفه أن يطبع له بطاقة باسمه ، ويسأله صاحب المطبعة :

— نكتب الاسم ، محمد عبده البابلى ، أو محمد البابلى بس ؟

ويجيبه البابلى وصاحبه الثقيل يقف بجواره :

— لا اكتب محمد المعاش .
ويسأله الرجل فى دهشة :
— محمد المعاش ؟
ويجيب البابلى فى هدوء :
— أيوه ، ما هو الراجل دا (ويشير إلى صاحبه) حالوه على .. ويفهم الرجل الثقيل أخيرا ، فيذهب إلى غير رجعة ! .

* * *

وكان لمحمد البابلى ولد يعمل موظفا فى بلدية المحلة ، وكان البابلى يمنحه خمسة عشر جنيها كل شهر فوق مرتبه ولكنه لم يكن يكتفى بما يأخذه ، بل كان دائم الإلحاح على والده فى طلب النقود .

وضاق البابلى بطلبات ابنه ، فصرخ فى وجهه ذات يوم غاضبا :

— انت بتودى الفلوس فين ؟
— فلوس إيه ، هيه دى فلوس ..
— كده ، طيب اسمع أما أقولك ، تبادلنى ، يعنى انت تاخد مركزى وأنا آخد مركزك ، وتخلصنى م الهم اللى أنا فيه .

وأجاب الابن فى سرور :
— مستعد .
— مستعد تخلصنى م الهم اللى أنا فيه ؟
— يعنى أتنازلك عن الأرض ، وعن الفلوس ؟
— مستعد .
— بس على شرط ، أتنازلك كمان عن أمك .

* * *

ويفاجئه صديق وهو يدخن فى رمضان ، فيصافحه

ويجلس إلى جواره ، ثم يحاول أن يجاذبه أطراف الحديث ولكن البابلى يلتزم الصمت ، ثم تتحرك شفتاه تترنمان بكلمات مبهمة ، فيسأله الصديق :

— الله . انت بتعمل إيه ؟

— ويجيبه البابلى :

— بقرأ قرآن !

— قرآن وانت فاطر ؟

— مانا بقرأ آية « فاطر السموات والأرض » .

* * *

ويعيش محمد البابلى حياة بهيجة ، سهرات . وحفلات ، ومآدب ، وأصدقاء ، ومضاربات فى البورصة ، وتريقة على عباد الله ، ثم يعتزل الوظيفة ويتفرغ لممارسة الحياة . ويلتقى به صديق ، فيسأله فى إشفاق :

— انت سبت البوليس ؟ ..

ويضحك البابلى وهو يقول :

— لا .. البوليس أفرج عنى ..

وتنتهى به حياة اللهو إلى الإفلاس . فيعيش بقية حياته فى قلق ، ولكن النكتة لم تفارقه أبدا ..

يسأله صديق :

— انت عدلست (نسبة إلى عدلى باشا) ولا وفدست (نسبة إلى الوفد) .

فيجيب البابلى :

— أنا فلست .

وكان هذا فى حقيقة الأمر هو موقف محمد البابلى من الحياة ، عدم الارتباط بشىء إلا بحياته الخاصة ، وبمزاجه الخاص ، فلما طحنته الحياة ، ذاب فى مأساته الخاصة .

يســـ ـيق آخر عن أحواله فيخبره بما آل إليه حاله ، فيسأله في إشفاق :
— طيب والطين (الأرض) .
فيجيبه في حزن حقيقي :
— شلته .

* * *

ويستمع إلى سي عبده الحامولي يغني « أهل السماح والملاح فين أراضيهم » فيتنهد البابلي في حسرة ويقول :
— في البنك العقاري ..
وكان البابلي قد رهن أراضيه في البنك العقاري .

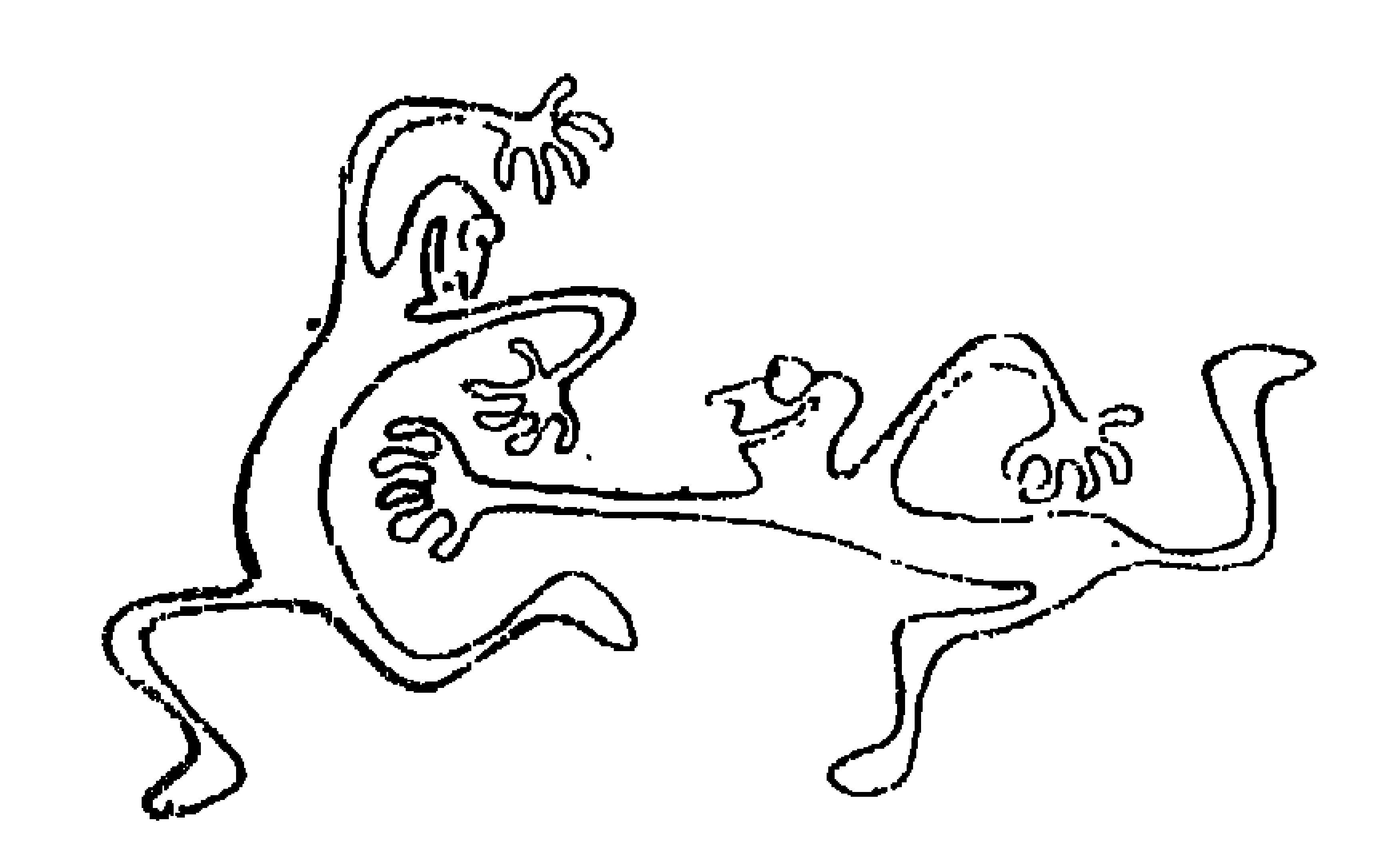
* * *

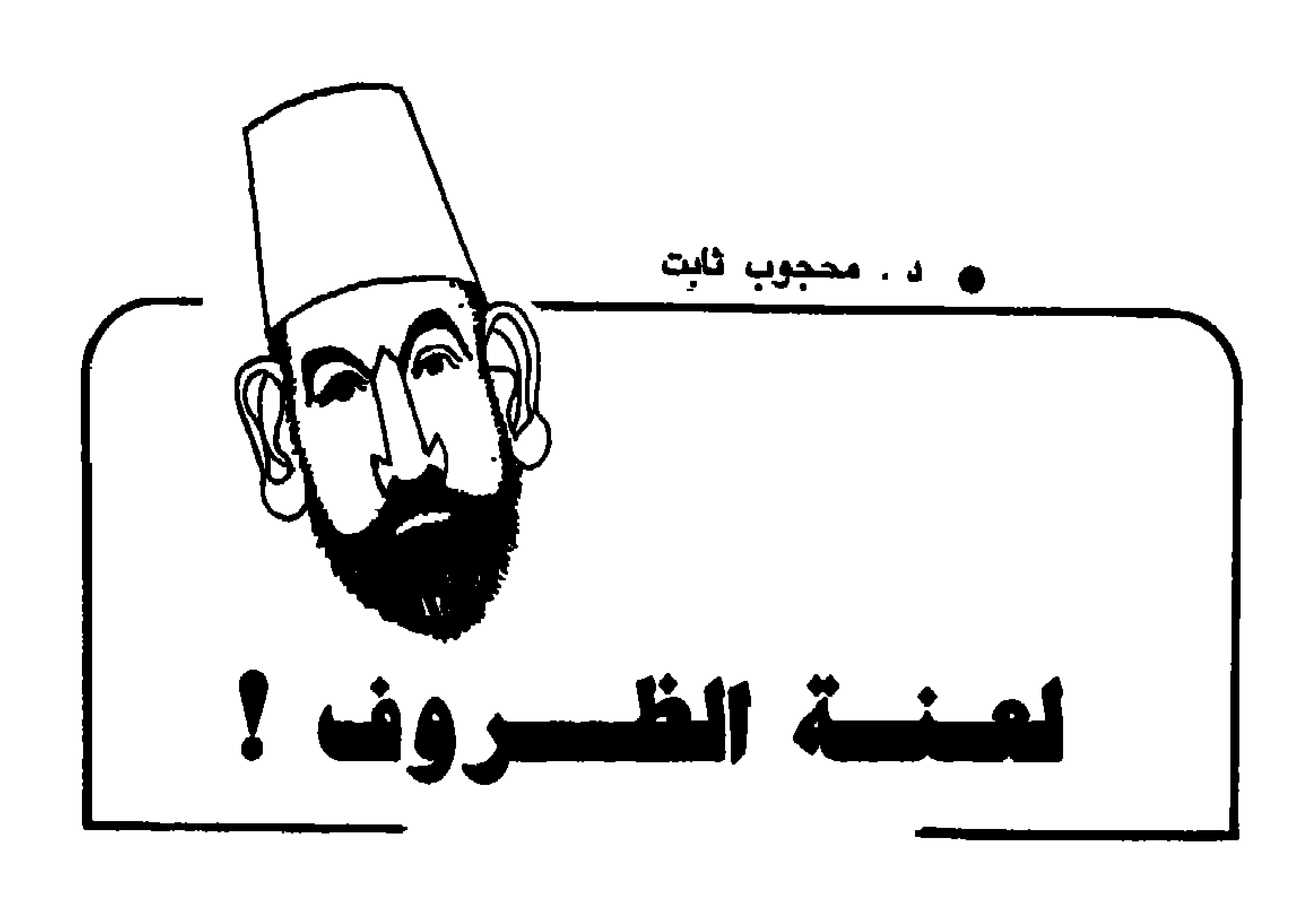
ويقضي البابلي آخر أيام حياته فقيرا لا يملك شيئا ، البنك استولى على الأرض ، وضاع في اللهو ما كان معه من نقود ، والخمر تبتلع النزر اليسير الذي كان قد تبقى ، ويهجره أغلب أصدقائه ، ويتحاشاه حتى أقرب المقربين إليه ، ويفقد كل شيء .. حتى تابعه الذليل سنقر مات ! ويمر عليه متسول يسأله شيئا لله ، فيجيبه في ثورة :
— الله ما خد كل حاجة ، حتى سنقر .
ثم يموت محمد البابلي ، وتموت معه كل نكاته ، لأن نكاته لم تكن من النوع الذي يعيش . إذ لم يكن البابلي يستهدف من ورائها شيئا إلا المتعة والإضحاك . ورغم اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في زمانه ، ورغم وفورة المضحكات المبكيات حينئذ ، فإن محمد البابلي لم يستخدم موهبته أبدا في « جلد » النظام القائم وأربابه ، ربما لأنه كان أحد المستفيدين من قيام النظام بكل متناقضاته وأخطائه ، حتى بعد أن حطمته المأساة وأفلس ظل صديقا للنظام ،

ولم يستخدم موهبته أبدا فى عدائه .

لم يرتبط محمد البابلى بشىء ، غير شلته . لذلك لم يعن بالشعب لانه لم يحس بوجوده . وكان الشعب عنده ، وفى أعظم صوره ، خدم الملاهى ، والفلاحين فى الضيعة ، وحراس قصره ، وسنقر الذى صحح الآية للمقرىء ، لأنه كان يقرأ من سورة النساء ! .

على أية حال ، لقد ذهب البابلى بعد أن أضحك أبناء طبقة كان البابلى ينتمى إليها .. طبقة أبناء الذوات . ولهذا السبب لم يحفظ الشعب نكاته ، ولم يرددها من بعده .. فماتت . أخذها الله أيضا كما أخذ أرضه وأمواله وأصدقاءه وكما أخذ تابعه الذليل . سبنقر ! .





د . محجوب ثابت

لعنة الظروف !

■■ وعاش محجوب ثابت يصارع هؤلاء ولكن أحدا لم يصارعه ، بل اتفقوا جميعا على حبه ، واتفقوا على شيء آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه ، أن يضعوه فى المكان اللائق .. أن يظل رجلا هازلا يضحكون منه ، ويضحكون عليه ..

محجوب ثابت

كان ثريا ، وكان نائبا ، وكان سياسيا ، وكان كاتبا ، وكان زعيما للعمال ، وكان زميلا وأستاذا للعظماء والزعماء والوزراء ، وكان صديقا لأنبغ وأشهر وأعظم أبناء عصره ، وكان ظريفا ، ابن نكتة ، تجلس إليه فلا تمله ، وتسمعه فلا تزهد حديثه ، عاش حياة طويلة عريضة ، وخرج منها بكل شيء إلا الوزارة .. والزواج .

كان يرغب في الزواج ، وحاول مرتين وعدل ، عدل في المرة الأولى عن إشفاق ، وفي الثانية عن فشل .

كان يدرس في سويسرا ، وكانت له زميلة مليحة روسية شابة من النبلاء ، بيضاء كالحليب ، في عينيها زرقة المحيط ، وفي شعرها صفار الذهب .. وأحبها وأحبته .. وطلبت إليه أن يتزوجها فأمهلها أياما يدبر فيها أمره . وذهب الرجل الحائر يستشير صديقه مراد سيد أحمد ـ وهو الذى سيصبح فيما بعد وزيرا للمعارف في مصر ـ فينهاه عن هذا الزواج ، خشية أن تفسره العامة في مصر تفسيرا سيئا ، إذ كيف للوطني المجاهد أن يتزوج أجنبية .. !

وفعلا هجر الروسية النبيلة وفر إلى باريس .

وكما كان صديقه السبب في عدم زواجه في المرة الأولى ، كذلك كان السبب في المرة الثانية صديق آخر ، فبعد ربع قرن طويلا فكر في الزواج ، ثم فوجيء وهو يقطع

خطوته الأولى نحو تحقيقه بصديق يتزوج من التى كان قد اختارها زوجة له ، فأصابته المفاجأة بعقدة من الزواج ، فأقسم ألا يتزوج حتى يموت ، وفعلا كان .. !

حلم لم يتحقق

أما الوزارة فقد كان يتلهف عليها ويترقبها ، وكان يرى انه أحق الناس بها ، وكان يؤمل أن يستوزره الوفد ، ولكن الوفد لم يفعل ، فخاصمه وهاجمه طول حياته ، وحقد على زعمائه وأعضائه .. وانتظر أن يحقق محمد محمود أمنيته الكبرى ، وفعلا ، استدعاه محمد محمود عام ١٩٢٨ عندما أصبح رئيسا لوزارة القبضة الحديدية ، وتوقع الرجل أن يسند إليه محمد محمود الوزارة ، فحمل معه كل مشاريعه وكل برامجه ، وذهب إليه ، ولكنه فوجىء بمحمد محمود يعرض عليه مرافقته فى رحلته إلى الأقاليم .. وكتم الرجل غيظه وسافر معه ، مؤملا أن يحقق بغيته بعد الرحلة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فهاجم محمد محمود بشدة وبعنف ، وخاصمه حتى مات .. !

بسمارك افريقيا

واعتزل الأحزاب وهاجمها ، ورأى فيها شرا وبلاء وخطرا ، وهاجم كل الزعماء وحمل عليهم ، ولكن موقفه مع صدقى كان يختلف عن ذلك لأن صدقى الذكى أراد أن يمسك هذا اللسان عن مهاجمته ، فانتهز فرصة توليه الحكم عام ١٩٣٠ ، فأنعم عليه بمنصب كبير أطباء الجامعة .. وفرح الرجل بالمنصب فرحا كبيرا ، وتحركت مواهبه تمدح صدقى وتشيد به ، حتى لقبه بـ « كليمونصو » مصر ، و « بسمارك » افريقيا ، وحتى مدح دستوره ـ دستور عام ١٩٣٠ ـ ووصفه بأنه خير ألف مرة من دستور ١٩٢٣ .. !

ولم يكن مما يشرف إنسانا فى ذلك العصر أن يمدح صدقى ويشيد بمزاياه .. فما بالك إذا كان هذا الإنسان وطنيا بحق ، أبلى بلاء حسنا فى الثورة ، وادعى زعامة العمال الذين سلط عليهم صدقى هراوته ، ثم رصاصه ، ثم دفنهم وهم أحياء ؟ !

صورة للعصر

ولكن .. هكذا كان الدكتور محجوب ثابت ، أحد أبناء الجيل المضطرب الحائر الذى سبق ثورة ١٩١٩ وأعقبها ، بل كان محجوب ثابت هو ممثل هذا الجيل بجدارة ، وصورة حية لروح العصر ! .

كان محجوب ثابت إذن مضطربا مشوشا كالعصر الذى عاش فيه ، احترف الطب وجمع ثروة من ورائه ، ولكنه يهجر عيادته ليجمع تبرعات للوفد ، ثم ينتظر الجزاء فلا يجد إلا الإهمال والإعراض ، فيثور على الوفد ، ويمدح حزب الأحرار ، ولكن حزب الأحرار يعامله كرجل هازل ، يحبه نعم ، ولكن بقدر لا يرتفع بالرجل إلى منصب الوزارة ، فيخاصم الحزب ويحمل عليه ، ثم ينصب نفسه زعيما للعمال ، فإذا جاء صدقى إلى الحكم عام ١٩٣٠ انضم إليه يمدحه ويدعوه له ، بينما صدقى وجنوده يسفكون دم العمال على قارعة الطريق ..

وعاش محجوب ثابت حياته يصارع هؤلاء وهؤلاء .. ولكن أحدا لم يصارعه ، بل اتفقوا جميعا على حبه ، واتفقوا على شىء آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه ، أن يضعوه فى المكان اللائق ، وكان مكانه اللائق .. أن يظل رجلا هازلا يضحكون منه ، ويضحكون عليه ..

حدث مرة أن رشح الدكتور محجوب ثابت نفسه ضد

مرشح !! قد فى إحدى دوائر الاسكندرية ، وحاربه الوفد حربا لا هوادة فيها ، واستطاع أن ينتصر فى النهاية ، ويدخل مجلس النواب نائبا .. رغم أنف سعد ..

وتصور أنت نائبا يدخل مجلس النواب رغم أنف سعد ، وهو الذى لو رشح « حجرا لانتخبناه » ، وتصور أى خطر وأى قدر يكون لهذا الذى تحدى « الأمة وإرادة الأمة » .. ولكن محجوب ثابت كان شيئا آخر .. حتى فى نظر سعد .. ولذلك نرى سعد لا يغضب منه ولا يحقد عليه ، بل يتواطأ مع مجلس النواب ليسخر منه ، فيوعز إلى أعضاء لجنة الطعون بأن يتباطأوا فى تقديم تقرير الطعن المقدم ضد محجوب ثابت لتظل نيابة الدكتور معلقة .

ويتردد محجوب ثابت على مكتب سعد زغلول آلف مرة ، يطالبه بالفصل فى الطعن المقدم ضده ، ويعد سعد ، ثم يخلف ، ثم قرر أخيرا أن ينظر المجلس فى الطعن .

وكلف سعد النقراشى بتدبير مسرحية لمداعبة الدكتور محجوب ثابت ، فيتكلم حمد الباسل مدافعا عن صحة نيابة الدكتور ، ويخطب على أيوب معارضا فى انتخابه .

الشربات يا محجوب !

وينعقد المجلس ، ويهب على أيوب معارضا صحة نيابة الدكتور محجوب ثابت ، ويعلن ان لجنة الطعون وقعت فى خطأ حسابى ـ غير مقصود ـ مما أدى بها إلى رفض الطعن ، ويطلب فى حزم إعادة النظر فى الطعن ، ورفض نيابة الدكتور محجوب ثابت .

ويثور الدكتور محجوب ، وسعد على المنصة يبتسم ويضحك ، ويطلب من على أيوب أن يعيد الكلام بتؤدة حتى

يتمكن النواب من سماعه ودراسته .

ويعيد على أيوب الكلام ، والدكتور يستمع إليه وهو جالس مكانه كالمأخوذ ، والنقراشى يجلس خلفه متظاهـرا بالأسف .

ويطلب سعد من محجوب ثابت أن يرد على كلام على أيوب ، فيطلب التأجيل ، ولكن سعد يرفض التأجيل ، ويثور الدكتور على سعد ، ثم يتوسل ، ولكن سعد يتجاهل ثورته ويرفض توسله ، ويطلب إلى الدكتور ماهر أن يتكلم .

وينهض أحمد ماهر ويبدأ الكلام ، فإذا به يحمل على زميله على أيوب ويفند كلامه ، ثم أعلن رفض الطعن وصحة عضوية محجوب ثابت ، ويهجم النواب على محجوب ويحملوه على الأعناق إلى بوفيه المجلس ، ويهتف أحدهم ويردد الآخرون الهتاف « نريد الشربات يا محجوب » ومحجوب يرفع يديه ـ كما يفعل الزعماء ـ ويحييهم ، وسعد يشهد المنظر عن كثب وهو يضحك من الأعماق ..

وهذه الحادثة تكفى لتفسير موقف الأحزاب والزعماء وكبار الشخصيات من محجوب ثابت .. انه رجل ظريف .. لا أكثر ولا أقل .. !

ميراث قومى

ان الكاتب الساخر عبد العزيز البشرى يكتب عنه فيقول :

« لا شك أن الدكتور ثابت ، يعد بحق من ميراثنا القومى ، ولو جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من محجوب ثابت بأية طريقة ، انه فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء ، ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحلقة المحمل ووفاء النيل وشم النسيم » .

ثم يتعرض لنشاطه السياسي فيقول : « والدكتور في المصريين كانجلترا في الأمم ، كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضي ، فإذا كان الكلام في النيل تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين ، وإذا كانت الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية ، وكلما انتشرت في البلد مظاهرة كان قائدها ، وكلما ساروا بجنازة كان على رأس المشيعين ، فإذا كان اجتماع في الأزهر كان الدكتور فارسه الذي لا يشق له غبار ، وإذا كانت مشاكل للعمال أبى الدكتور الا أن ينفرد بها من دون الناس جميعا ، كان نقيبا لعمال العنابر ولفافي السجائر وسواقي الأوتوموبيلات وشيالي المحطات وخدم الفنادق والقهوات وجميع الطوائف من كل بدال وبقال وجزار ..

« وفي الحق فإن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما في البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسائح وبارح ، ودارج على متن الغبراء ، وطائر في جو السماء ، فإذا كانت هناك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور فهي عيادته .فقط ! »

« واني أقترح على الحكومة أن تصدر قرارا ينزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار » !

انتهى كلام البشري .

وهو في اعتقادي صورة عبقرية صورها قلم البشري لمحجوب ثابت .. وأغلب ظني ان محجوب ثابت ثار على هذا الكلام ، فقد كان يكره المداعبة حين تجرح ، وكانت أكثر الدعابات الجارحة تأتيه من شوقي ..

كان شوقي يعرف نقطة ضعفه ، فكان يحمل إليه دائما

أنباء لا تسره « كم أنت ضائع الحق يا محجوب ، ان صاحبك النقراشى اعترض على تعيينك وزيرا للصحة ، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة » .. ويصدق الدكتور محجوب الدعابة ، وينطلق يسب النقراشى ، ثم يدرك بعد أيام ان شوقى خدعه ، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة .. ولكن إدراكه ان شوقى يخدعه كان لا يمنعه من أن يصدق نفس الرواية إذا عاد شوقى وقصها عليه ، وقد ظل شوقى أكثر من خمسة أعوام طويلة يحمل إلى الدكتور محجوب ثابت نبأ اختياره وزيرا للصحة ، ثم اعتراض بعض الوزراء على هذا التعيين .. وظل محجوب خلال هذه السنوات الطويلة يصدق شوقى فى كل مرة ، ثم يكتشف عقب كل مرة انها كانت خدعة ، وانه كان ضحية مؤامرة مدبرة ..

هجاء شـــوقى

وكان محجوب يغضب أياما ثم تصفو نفسه ، فيعود إلى شوقى ، ولكن شوقى هجاه بقصيدة جعلت محجوب يقرر الدخول مع شوقى فى معركة طاحنة ، وأعلن انه سيعرى شوقى أمام الناس ، وانه سيكشف عن سرقاته الشعرية ، وسيميط اللثام عن جهله ـ جهل شوقى ـ وسيجعل منه عبرة لمن يرى ، وفعلا ، يكتب الدكتور محجوب مقالا ناريا فى هجاء شوقى ويبعث به إلى الأهرام ، ولكنه يعود فيتصل بالأهرام فى المساء طالبا إلى المسئولين فيها عدم نشر المقال ، فقد خشى أن يؤدى نشره إلى قطيعة أبدية بينه وبين شوقى ، وكانت القصيدة التى أهاجت محجوب وأغضبته :

براغيث محجوب لم انسها

ولم أنس ما شربت من دمى

تشق خـراطيمها جـوربى

وتنفذ فى اللحم والأعظم

وتنظـرهـا حـول « بيْـت » الرئيس

وفى شاربيه وحول الفم

بواكير تطلع قبل الشتاء

فتحمـل الـويـة المـوسم

قد انتشرت جوقة جوقة

كما رشت الأرض بالسمسم

ترحب بالضيف عند الطريق

فبـاب العيـادة فـالسلم

رايه فى معاصريه

ولقد كتب محجوب ثابت رأيه فى أكثر معاصريه : قال عن مصطفى النحاس : انه كان يمثل الوطنية طالبا ، والنزاهة والشجاعة قاضيا ، والإخلاص محاميا ، أما النحاس الزعيم فلأترك الحكم عليه للتاريخ ..

ووصف مكرم عبيد بأنه خطيب العواطف ، وإذ يلقى خطبته أو يدبج مقاله ، أو يدلى بحديثه ، فكأنه يوقعه على قيثارة ، صديق ودود وعدو لدود ، فهو ملاك فى صداقته ، شيطان فى عداوته ، جبار فى خصومته ..

وقال فى إسماعيل صدقى : ان المنصفين من أبناء هذه الأمة يعترفون بوطنية إسماعيل صدقى وبعد نظرة ، وان التاريخ سينصفه ، وسيقدره الأبناء والأحفاد ، بل بدأ الناس يفهمونه ، ألم يحمله طلاب الجامعة على الأعناق تكريما .. !

وكان للدكتور رأى فى فاروق ووالده فؤاد لا أظنه كان رأى محجوب ثابت الحقيقى ، وأغلب ظنى انه رأى تجارى أراد

الدكتور أن يصل به إلى كرسى الوزارة ، وهو المنصب الذى عاش محجوب ثابت ومات وهو يحلم به ، وكان يرى انه أحق الناس فى مصر بوزارة الصحة ..

لقد ذهب إلى محمد محمود بعد تأليف الوزارة ، وانفجر فى وجهه ساخطا لاعنا محتجا .. لقد جعلتم من البندارى وزيرا للصحة وهو محام لا أطعن فى مكانته بين المحامين ، ولكن ليست لديه معلومات صحية ، ولا دراسات طبية ، كما انه لم يشتغل بالمسائل العامة ، ولم يجاهد كما جاهدت ، ولم يضطهد كما اضطهدت ، ولم ينكب فى سبيل الوطن كما نكبت ، ولم ينف كما نفيت ، ولم يفتش له مكتب كما فتشت ، ولم يتلف له كتاب ، وبالجملة لم يؤد كما أديت ، ثم قال منشدا قول غيره فى محمد محمود :

رجوت لك الوزارة طول عمرى
فلما كان منها ما رجوت
تقدمنى أناس لم يكونوا
يرمون الكلام إذا دنوت
فأحببت الممات وكل عيش
بحب الموت فيه فهو موت

* * *

ويبدو أن الدكتور يئس من تولى الوزارة فقنع بالحديث عنها وكيف انهم فاتحوه فى الأمر فرفض ، واشترط شروطا غاية فى الحزم وغاية فى القسوة ، وقد أنشد حافظ إبراهيم فيه قصيدة جاء فيها :

يبيت يحلم أحلاما مذهبة
تغنى تفاسيرها عن علم ابن سيرين

طورا وزيرا مشاعا فى وزارته
يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتـارة زوج بمطبول مـدملجـة
حسنـاء تملك آلاف الفـدادين
يعفى من المهر إكراما للحيته
وما أظلته من دنيـا ومن دين

* * *

وبعد حياة طويلة عريضة حافلة ، قدر لمحجوب ثابت أن يهدأ وأن يستريح ، ولقد ظل حاضر البديهة متوقد الذكاء حتى فى لحظاته الأخيرة ، وظل يذكر مشروعاته واحدا بعد الآخر ، ثم عض على شفتيه وقال فى أسف عميق : لو كنت توليت الوزارة لنفذتها ! .

ثم أغمض عينيه .. ومات .. وكانت آخر كلمـاته المشروعات والوزارة !!

والحق أقول : ان محجوب أحق من كثيرين بالوزارة ، وأنه كان شجاعا جنت عليه شجاعته ، كما أودى به ظرفه .. ويبدو أنهم كانوا يغفرون كل شىء إلا أن يكون ظريفا ، ولهذا السبب وجدنا فى كرسى الوزارة .. اللصوص والخونة والعملاء ، الذين أكلوا على الموائد وتسلقوا طريقهم على الأكتاف كالقرود ..

أما محجوب ثابت فقد حرموه من الوزارة ، فقد كان مجرما .. كان ظريفا .. !

* * *

أتعس الظـــرفاء

■■ وفعلا انهمك مجدى فى الرقص !!
واستنجد الرجل بالبوليس ، فقد تأكد
ان الموظف الذى اقتــرحه كـامل
الشنــاوى .. لابد انــه كان نــزيلا
لمستشفى المجاذيب .

مجدى فهمى

الحرب عام ١٩١٤ ..

وفى مصر جنود من كل الأجناس ، ومن شتى بقاع الأرض : انجليز ، وهنود ، واستراليون ، ومن شرق وغرب افريقيا ، والجنود الأجانب يأكلون خيرات البلاد ، والمصريون يأكلون من طين الأرض ، والفلاحون يهجرون الريف ، والأثرياء يفرغون رصاص المسدسات فى رؤوسهم ، والتجار يفلسون بالعشرات ، والخراب يعم وينتشر ويصبح فى نهاية الحرب « زعيم الأغلبية » فى البلاد ..

ويفلس مع من أفلس تاجر عجوز اسمه أحمد فهمى ، كانت له تجارة رابحة فى الريف . ويقيم أحمد فهمى فى المنصورة وقد هدت كيانه المأساة فلا يجد ما يصنعه إلا النكتة ، والتريقة على عباد الله

ومع الإفلاس يرزق أحمد فهمى بولد ، فيطلق عليه من باب التريقة أيضا .. اسم مجدى ، أى مجد الوالد ، وكان مجد أحمد فهمى .. الإفلاس .

ويترعرع الطفل مجدى وسط هذه الظروف العجيبة ، والد يحترف الهزل بعد أن حطمته المأساة ، وأوضاع غريبة تسيطر على البلاد ، ملك يملك ولا يحكم ، ووزراء لا يملكون ولا يحكمون ، وجيش أجنبى يحكم ويملك كل شىء .. حتى الملك والوزراء .

ويجوب الطفل حوارى المنصورة مع أبيه ، يدخل غرز الحشيش ، والمقاهى الحقيرة ، ويصافح وجوها شاحبة ، وأفواها نخر فيها السوس ، ولكنها مفتوحة رغم كل شيء تقهقه ساخرة على كل شيء :

ثم يهجر مجدى المنصورة إلى القاهرة .. إلى المدرسة ، ولكنه بعد أن ينتهى من دراسته الثانوية يصاب بكارثة توقفه ، وتمنعه من التقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فقد مات أبوه فجأة ، وأصيب بعاهة جعلته لا يرى أبعد من مواطيء قدميه .

ويخرج مجدى إلى الشارع .

ولم يكن فى الحياة التى شهدتها مصر تلك الأيام متسع لرجل مثل مجدى لم يتم تعليمه ، مترهل الجسم كأنه فيل ، ضعيف البصر لا يكاد يرى ، حاد النكتة كأن لسانه كرباج سودانى أصيل .. فيقنع من الحياة بالفرجة عليها ، والسخرية منها .. ومن كل الناس . ويظل مجدى عاطلا بلا عمل ، وتنشب الحرب العالمية عام ١٩٣٩ ومجدى بلا عمل ، ولا أمل فى عمل ؛ والحرب جعلت لكل شيء سعرا حتى التراب ، إلا مجدى ، فقد ظل كما كان .. لا سعر له على الإطلاق . ولا شيء يشغله فى الحياة إلا التردد على مكاتب ومنازل الأصدقاء ، يضحكهم ، ويدخن من سجائرهم ، ويأكل على موائدهم ، ثم يتكرم أحدهم آخر الليل بتوصيله إلى بيته .

بتلعبلى حواجبك ؟ !

وكان من الممكن أن تمضى الحياة هكذا إلى آخر العمر . ولكن أحد أصدقائه ـ كامل الشناوى ـ يعثر له على عمل ، فى أحد المكاتب ليقوم بترجمة نشرات عن جهود الحلفاء فى

الحرب ، عمل يجيده مجدى ، وبمرتب لم يكن مجدى يحلم به ، تسعون جنيها ليس كل عام ، وليس كل دهر ، ولكن كل شهر ، ويخطف مجدى العنوان من يد كامل الشناوى ويهرول نحو المكتب ويدخل على « صاحب السعادة » المدير ، فيجده رجلا ضئيلا لا يكاد يبين من خلف المكتب ، دميما كأنه قرد ، ولكنه بالرغم من ذلك يبدو بشوشا رقيقا مجاملا إلى حد بعيد . ويجلس مجدى أمامه فى أدب شديد يستمع إليه وهو يشرح له تفاصيل العمل ، وكان الرجل يعانى من شلل قديم أورثه حركة عصبية غريبة تجعله دائما يرعش حاجبه الأيمن ويخرج لسانه ، ويهز كتفه الأيمن خصوصا إذا انهمك فى الحديث ، وعندما انتهى الرجل من شرح طبيعة العمل وذكر المرتب (٩٠ جنيها) راح يخرج لسانه لمجدى ويهز له كتفه ، ويرعش له حاجبه فى حركة متواصلة ، ودقق مجدى النظر إليه ، فتأكد أن الرجل يسخر منه ، وليس أدل على ذلك من هذه الحركة الغريبة ، ومن المرتب الذى ذكره ، إذ أن مجدى كان لا يحلم بأكثر من تسعة جنيهات .

وعندما يصل مجدى إلى هذا الاستنتاج الخاطىء ، يقفز من فوق مقعده ، ليقف وسط الحجرة ويصرخ فى وجه الرجل :

— بقى انت بتلعبلى حواجبك ، طيب أنا هارقصلك .

وفعلا .. انهمك مجدى فى الرقص ، واستنجد الرجل بالبوليس فقد تأكد له ان الموظف الذى اقترحه كامل الشناوى .. لابد انه كان نزيلا لمستشفى المجاذيب .

الغريب فى الأمر ان المدير ظل معتقدا حتى آخر أيام حياته ، ان الموظف مجدى هو أحد « مقالب » كامل

الشناوى . ما علينا ، فقد خسر مجدى الوظيفة ، وعاد إلى الشارع ..

وتمضى سنوات طويلة ومجدى عاطل ، ثم يتوسط له حفنى محمود عند حامد جودة ليلحقه بوظيفة فى مجلس النواب ، ويوافق حامد جودة ، ويصبح مجدى أخيرا موظفا على اعتماد ، وبمرتب خمسة وعشرين جنيها . ولا يكاد ينقضى أسبوع على تعيين مجدى حتى يهب الشعب فى كل مكان ثائرا ضد حكومة الأقلية ، والمدن تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط الخونة ، ويصيحون مطالبين بالجلاء والاستقلال ، وتستمر المظاهرات أسبوعا كاملا ، وتهاجم الجماهير الغاضبة دار مجلس الوزراء ، والوزارات ، وتتجه إحداها إلى مجلس النواب . ويقف حامد جودة يرقب المظاهرة الصاخبة من نافذة مكتبه ، عشرات الألوف يزمجرون ويهتفون « يسقط الخونة ، يسقط حامد جودة » وشخص أكثر حماسا من المتظاهرين يقود المظاهرة ، ويركب فوقها ، ويهتف فى صوت كالرعد « يسقط حامد جودة » ويدقق حامد جودة النظر إلى الشاب الذى يركب فوق الأعناق ، فيجد انه نفس الشاب الذى توسط له حفنى محمود .. البائس مجدى . وتقوم الدنيا وتقعد ، ويفصل مجدى من مجلس النواب .

ركوب المظاهــرة !

ولكن حامد جودة يستدعيه ، ويصر على أن يعرف منه الأسباب التى دفعت به إلى ارتكاب هذه الجريمة » !!

ويجيبه مجدى فى سذاجة وفى سخرية :

— ولا حاجة ، أنا خرجت من بيتنا عشان أوصل للمجلس لقيت المظاهرات شغالة والمواصلات مقطوعة ، فقلت أحسن

طريقة أركب مظاهرة لحد المجلس .. ويضحك حامد جودة حتى يستلقى على قفاه ، ويخرج مجدى من مكتب رئيس المجلس .. إلى المهنة التى كان يجيدها .. إلى الشارع .

ويسأم مجدى البطالة فيبحث بنفسه عن عمل ، وكان يهوى الصحافة فاتصل بصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الذائعة وتوسل إليه أن يفسح له مكانا فى جريدته ، ووافق الرجل ، وذهب مجدى إليه . وخلال جلسة استمرت تسع ساعات كاملة وامتدت حتى الفجر ، ظل الرجل صاحب الجريدة يلقى على مجدى دروسا فى الصحافة ، وفى فن الكتابة ، ومجدى يستمع إليه ويبتسم ويهز رأسه موافقا إياه على كل حرف .

* * *

يقول مجدى : كان الرجل جاهلا .. أجهل من معلم إلزامى ، حقيرا أحقر من عبد ، فاستغل ضعفى وحاجتى إليه ليفرز معى عقده النفسية . وخرجت من مكتبه وقد اتفقنا على أن أكتب له مقالة فى الأدب ، مقابل عشرة جنيهات ..

وغاب مجدى أياما ثم عاد ومعه المقال ، مقال فى الأدب كما اتفق مع الصحفى الكبير ، وقرأ الرجل المقال فأعجبه ، وأمر بنشره على الفور ، وظهر المقال فى الجريدة ، وكانت فضيحة !! يقول مجدى لقد خسر الجاهل سمعته ، وخسرت أنا الجنيهات العشرة .

وكان المقال يبدأ هكذا :

يقول همفرى بوجارت فى كتابه « الشمس طالعة » ان كل ما يجرى على أرض الناس لا يمكن أن يدوم إلا بعد فوات الأوان ، ولكن « شارل بوابيه » يرد عليه زعمه هذا فى مؤلفه الضخم « من هنا حتى نعود » فيقول : ان الإنسان الفرد

ليس ذا قيمة حقيقية إلا بالحلوى . وان الحلوى تفقد طعمها بمجرد أن ينسى الإنسان نفسه ، إذ أن الإنسان كالقرد ، يحلو له أن يتسلق الحياة ، حتى إذا تمكن من الوصول انداحت من حوله المآسى ، كما تنداح مياه بحيرة التمساح !!

واختفى مجدى بعد ذلك شهرا كاملا ، وقيل ان صاحب الجريدة « المثقف » أقسم أن يقتله بالرصاص .

فتـــلة المــــرســـلات

ويسأم مجدى البطالة مرة أخرى فيبحث عن شىء جديد ، وسرعان ما يجد هذا الشىء فى باب إحدى المجلات الأسبوعية . إذ أرسل مجدى إلى المجلة خطابا رقيقا هذا نصه :

فتاة خمرية ، شعرها طويل ، جميلة جدا ، من أسرة محافظة ، دخل شهرى محترم ، ترغب فى مراسلة شاب ، منصب محترم ، لا يزيد على الأربعين ، طويل ، رياضى ، يهوى التحف والاسفار .

وينهال على العنوان الذى ذكره مجدى مئات الخطابات من قضاة فى المحاكم ، ومحامين ذوى شهرة ، وأطباء مرموقين ، وطلبة مراهقين ، وصياع وذئاب ، وأولاد ناس ، وأولاد كلب . ويستمتع مجدى بقراءة خطابات الغرام العنيف الذى هبط فجأة على حضرات الروميوهات ، ثم يعتنى بالرد عليها جميعا . وانقضت خمسة شهور قبل أن يكتشف بعضهم اللعبة ، فقد ذهب بعض الروميوهات الذين لم يستطيعوا الصبر إلى العنوان الذى ذكرته الخمرية ذات الشعر الطويل ، فإذا به نادى نقابة الصحفيين .

وذات مساء كان مجدى يجلس مع مأمون الشناوى فى منزل مأمون ، إذ لم يكن لمجدى منزل . وكان معهما مدرس وقور كان يتردد على بيت مأمون ليعطى أبناء مأمون دروسا فى اللغة العربية ، وكان المدرس ـ كما قلت ـ وقورا لا يحب المزاح . خجولا منطويا على نفسه ، وكان رغم فقره يتمتع بمظهر محترم ، وكان مجدى يخشاه ويتجنبه فقد كان دائم الحديث عن الجنة والنار ومعصية الله .

وفجأة ، دخل عليهم المخرج المشهور أحمد بدرخان ، وما أن عرف المدرس الوقور ان الزائر الجديد هو بدرخان ، حتى انقلب إلى النقيض ، وراح يصرخ ويزوم ، ويقفز كالثور ويتحدث بسرعة وبلهجة مضحكة :

ـــ أستاذ بدرخان ، يا سلام ، المخرج ، يا ألف مرحب بتاع السيما ، يا حلاوة ، يا أهلا وسهلا ، يا ألف مرحب ، ياألف نهار أبيض . أهلا أهلا ، وعندك فيلم دلوقت ، دا شيء جميل خالص ، طيب والنبى خدنى ، أى والله خدنى ، وحياة من جمعنا من غير ميعاد تاخدنى ..

ـــ بس أخدك إيه ..

وهتف مجدى على الفور :

ـــ خدو على قفاه .. !

وخرج المدرس من بيت مأمون ، ولم يعد على الإطلاق .

« تسـريح » مـزيـف !

وعندما احترقت القاهرة ، وفرض فاروق الظلام على البلاد ، وأجبر الناس على الفرار إلى البيوت قبل المغرب كالأرانب . شهر مجدى لسانه على العهد كله ، واشترك فى المعركة إلى جانب الشعب كمقاتل يطلق « الكلام » على معاقل الطغاة ، فكانت كلماته أفتك من الرصاص ، وأشد

مفعولا من القنابل .

يروى مجدى نكتة عن أغرب ما حدث له تلك الأيام :

كنت ماشي في السكة ، وفات ميعاد حظر التجول ، بصيت لقيت عسكرى ورايا عمال يصرخ .. قف من أنت ، قف من أنت ، رحت واقف مكانى ، جه العسكرى قدامى ومعاه بندقية وسنكى وسألنى :

— معاك تسريح « تصريح » .

— أيوه معايا .

— وريني .

يقول مجدى ، وضربت لخمة معى ، فلم يكن معى تصريحا ، لقد خشيت أن أبلغه بالحقيقة فيغرز السونكى فى بطنى ، فآثرت الكذب حتى تكون هناك فرصة للتفاهم . وبحثت فى كل جيوبى عن شيء يصلح « تصريحا » فلم أعثر على شيء ، فلم يكن معى بطاقة ، ولا شيء يشبه البطاقة وكل ما عثرت عليه ، ورقة يانصيب .. (الدبة) ورقة عليها أرقام ، وعليها صورة الدبة . وسلمت العسكرى ورقة اليانصيب الدبة ، فأخذها منى وابتعد عنى قليلا ليلقى عليها نظرة فى ضوء عمود النور . وغاب العسكرى طويلا ، ظل يحدق فى الورقة أكثر من عشر دقائق ، وأنا أتوقع شرا خلال كل لحظة ، فقد خشيت أن يفهم العسكرى اننى تعمدت السخرية به فيطعننى بالسونكى ، أو يطلق على النار . وبعد أن انقضت عشر دقائق كاملة ، تقدم العسكرى منى وصوب بندقيته نحوى ، وقال لى فى لهجة الواعى الخبير وهو يشير على ورقة اليانصيب وإلى صورة الدبة بالذات .

— لكن دى مش صورتك !

واستطاع مجدى أن يقنعه بأن الصورة له ولا أحد سواه ،

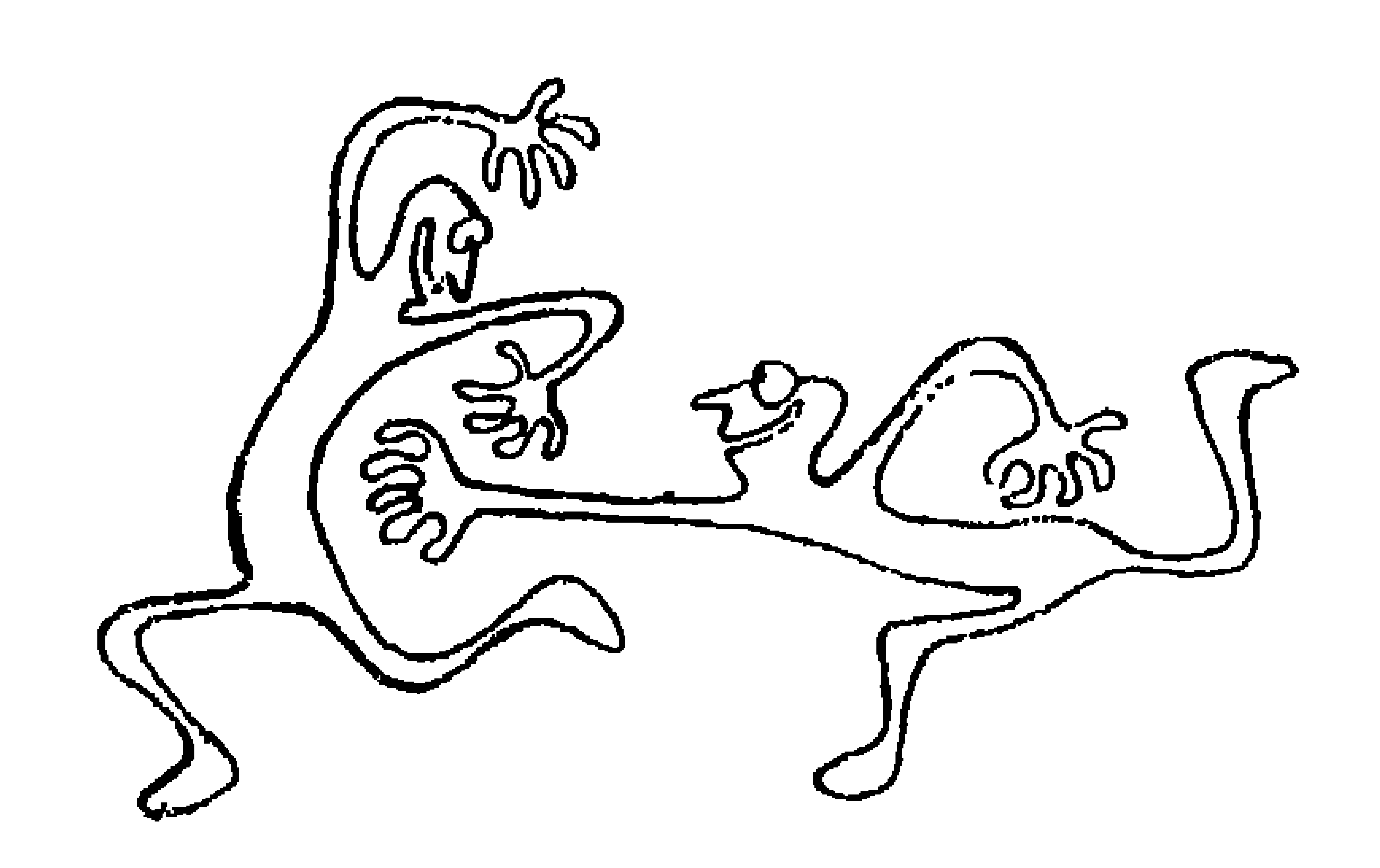
واستطاع أيضا أن يقنعه بمصاحبته إلى المنزل ، حتى لا يتعرض له أحد غيره .

وعاش مجدى حياته بعد ذلك يضحك ، ولكنه ضحك كالبكاء ، ويسخر سخرية مريرة من الأوضاع المقلوبة ، والنظم الحقيرة ، ويلعن الحياة والأحياء ، ويسب الدين والدنيا وكل الناس ، حتى الذين اعترضوا طريقه ، والذين تعقبوه وطاردوه .

ثم قدر لمجدى أن يشهد البعث ، فعاش حتى نشبت الثورة ، ولكنه لم يشهد إلا بدايتها .. ثم فجأة .. مات مجدى . وكانت حياته القصيرة الخاطفة أشبه بضحكة عريضة صافية من ضحكاته ، سرعان ما تدوى وسرعان ما تختفى وتتلاشى .

* * *

ومات مجدى ولم يبلغ السادسة والثلاثين ، وهكذا ذهب آخر ظرفاء العصر ، وأطيبهم قلبا وأتعسهم حظا ، فقد كان أتعس حظا .. حتى من عبد الحميد الديب .





بيرم التونسى

■■ « فنان الشعب لم يستجد يوما بفنه ، ولم يطلب أجرا ثمنا لموقفه ، وعاش ومات يقول فنا .. لا يخطب ولا يصرخ ، لأن الفن أقوى من كل شيء .. »

بيرم التونسى

كان نموذجا للفنان الملتزم ، واشتراكيا حقا كأن الاشتراكية ميكروب يسرى فى دمه ، وفى سبيل هذا الموقف الرائع دفع حياته ، ولم يدفعها مرة واحدة ، ولكن دفعها بالتقسيط وقضى عشرين عاما يتسول فى باريس ، ويتصعلك على رصيف ميناء داكار ، ويتجول كالذئب حتى بلده تونس ، ويرتعش من شدة البرد تحت جبل أيسون فى الشام ..

فنان الشعب لم يستجد يوما بفنه ، ولم يطلب أجرا ثمنا لموقفه ، وعاش ومات يقول فنا ، لا يخطب ولا يصرخ ، لأن الفن أقوى من كل شىء ، عاش رغم أنف الصياع الذين شتموه ، والحساد الذين حقدوا عليه ، وأولاد الذوات الذين احترفوا الفن لأنه موضة الموسم ، وهو يقول فى كل شىء وأى شىء ، لانه عاش الحياة كلها عاشها بالطول وبالعرض ، وبالعمق ، كذلك عاش محتجا ، لا يهادن ولا يماين ، محترق الأعصاب كأنه شمعة تحترق ، زاهدا كأنه غاندى ، لا يجد حتى معزة يسحبها وراءه ..

واكتشف ـ والتاريخ لا يزال فجرا ـ سر المشكلة ..

المشكلة ليست وطنية ولكنها اجتماعية من الدرجة الأولى ، وعساكر الانجليز ليسوا كل المشكلة ، ولكنهم جزء منها ، توزيع الأرزاق هو المشكلة الحقيقية ، والتهليب هو المرض الذى يجب أن يحارب .

ورفع سيفه ضد المهلبتية والخطافة وقطاع الأرزاق.، موقف عظيم من فنان عظيم ، يرتفع به إلهامه إلى مرتبة النبوة ..

ففي الوقت الذى كانت فيه غاية الكفاح ، صراخ حاد من الحناجر « مصر والسودان لنا وانجلترا ان أمكنا » و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » كان هو يرى المشكلة بالعكس ، فليس الاستقلال أن ترحل عساكر الانجليز من مصر ، بل الذى يجب أن يرحل هو استماطى وبنايوتى وكل الخواجات المتمصرين وكل المصريين المستخوجين .

يقول معريا هؤلاء الغرباء المتمصرين :

« والقطن برضه لمزراحى ولقرداحى
وابن البلد يقعد ماحى فى بلاده يقيم
أقطانه هو اللى زرعها واللى جمعها
ويوم ما باعها ما جابت له حق البرسيم
بنايوتى يقبض ويحصل ودا بيوصل
ويجرى دايما ما يحصل ولا حتى بهيم » .

* * *

هنا المشكلة .. أجير يطفح الكوتة طول النهار ولا يكسب شيئا ، وخواجا مجعبز على القهوة طول النهار ، يلعب الطاولة ويقبض ثمن كل شىء !!

الفنان العظيم وضع يده على المشكلة ثم راح يغوص فيها حتى القاع .. ناس تشقى ولا تجد ما تأكله ، وناس تأكل وليس لديها ما تعمله . ويكتشف الفنان عالما غريبا اسمه السمسرة .. أى شحط معه ثروة يدخل بها السوق .. ليحصل فى النهاية على ضعف ثروته .

وعن هؤلاء السماسرة يقول :

ولا بيحرث ولا بيبدر
ولا بيسبك ولا بيطرق .
ولا بيحصد ولا بيجمع
ولا بيخرط ولا بيقطع
ولا بيشحن ولا بيخزن
ولا بيوزن ولا بيدفع
وهو الغانمِ الاسلاب
وغيره يضرب المدفع
وإذا السوق ارتفع سالك
وإذا السوق اتضرب سالك
وغير مسئول عن التالف
وغير مسئول عن الهالك
وبالتليفون يجيب مليون
وميت مليون ولا يشبع
وله يوم الصعود فرصة
وله يوم النزول فرصة
وهدم بيوت وخلق تموت
بحسرة وهو متمتع

* * *

هذا فنان مثقف ، وسر فنيته أنه يحس المشاكل بمزاج مصرى . حتى فى الغربة وهو بعيد ، صايع وضايع وغلبان ، يظل يبحث عن شيء ينقصه :

لا سطل خروب يسعفنى
ولا ابن نكتة يكيفنى
ما يقصف العمر ويفنى
غير الخلايق بعيلها

وهو لا يسكت أبدا ولا يهمد ، حتى وهو في تونس .. في المنفى .. يتحرك ضميره فيتحرك لسانه :

والمغربى المسلم راخر
أبو زر فاشوك
لما انتقدته فزع قاللى
يلعن بابوك
وأنا اللى قصدى أشوف قيده
يصبح مفكوك
لقيته فرحان بيه راضى
طيب مبروك

وهو اذا دخل معركة لا يداور ولا يناور ، بل يقتحمها بالطريق المباشر لأنه صاحب ضمير حي :

وجابوك الانجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وخلوك تبهدل فى أمة أبوك
ومين يلقوا مثلك مغفل ودون

* * *

وهو لا يكتفي بهذا الكلام المباشر ، انه ينهش الطاغية فى عرضه ، انه فنان يفهم مزاج الشعب ، وشعبنا قد يغفر كل شيء إلا التفريط فى العرض .. انه يسخر من الطريقة التى ولد بها الأمير فاروق .. والشعب فيها يتهامس فى السر بأن الأمير قد ولد بعد أربعة أشهر من زفاف أمه نازلى من السلطان أحمد فؤاد .. ويتلقف بيرم التونسى هذا الهمس ، ليجعل منه قنابل يفجرها فى وجه السلطان :

مرمر زمانى يا زمانى مرمر
البنت ماشية من زمان تتمخطر

والغفلة زارعة فى الديوان قرع أخضر
يا راكب الفيتون وقلبك حامى
اسبق على القبة وسوق قدامى
تلقى العروسة زى محمل شامى
وأبوها يشبه في الشوارب عنتر
وغطى زهر الفل فوقها وفوقك
وجبلها شبشب يكون على ذوقك
ونزل النونو القديم من طوقك
يطلع كويس لا الولد يكبر
ويوم ما ينزل فى الجاكتة الكاكى
وستة خيل والقمشجى الملاكى
تسمع قولتها ....
العافية هابلة والولد متشطر
الوزة من قبل الفرح مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة
قلت اسكتوا خلوا البنات تستر .

* * *

ويحشد القصر كل جواسيسه وبوليسه ضد بيرم التونسى ، ولكن بيرم التونسى لم يكن مصرى الجنسية حتى تلك اللحظة ، ولعله سوء الحظ ـ سوء حظ الملك ـ أن يكون بيرم التونسى متمتعا بالحماية الفرنسية ولو انه كان مصريا لحظة كتابة هذا الزجل الرهيب لتدلى بيرم التونسي من حبل المشنقة . ولكنهم فى البداية اكتفوا بضربه ، واستأجروا بلطجيا جزائريا يعيش فى مصر اسمه يوسف شهدى ليتعقب بيرم التونسى ويقتله .. وأدى الرجل مهمته على الوجه

الأكمل ، ظل يتعقب بيرم ويضربه كلما يلقاه ، ولكن يبدو أن الضرب لم يكن كافيا لقطع لسانه ، فنفوه .. ووقف على رصيف الميناء يوم عيد الأضحى ، والدموع تغمر عينيه ، ينظر إلى مصر نظرة أخيرة :

يوم الدبايح كان آخر مواعيدك
وقفت لك فرحان أنصب رايات عيدك
وافرش لك الريحان واسمع زغاريدك
زعق غراب البين فصلت أكفانى
ياريته كان فى منام يصبح ويتفسر
او حكم بالإعدام على القاسى بيستر
ما كان تشوف العين حال اللى بكانى .

* * *

ويسمع وهو فى المنفى ، أن كل شىء فى مصر ينهار ويتحلل ، رائحة العفن فى كل مكان ، والتفسخ فى كل شىء ، وعبد المنعم ابو بثينة أصبح أميرا للزجالين : .

خراب ما يحتاج لمعاينة
وفن باين وأهى باينة
أميرى جوز أم بثينة
وأنا الرعية وعيالها
يا مصرى هجرك يكفانى
يا عاملة قمع ونسيانى
ويوم ما هارجع لك تانى
هتبقى راجعة برأسمالها .

* * *

الثائر .. الساخط .. يجد وقتا للضحك ، كلماته تقطر سما ، وتقطر حلاوة ، ليس فى العالم أكثر ضراوة من رجل

ضائع يضحك .

كتب زجلا يرثى به سجانا اسمه غانم :

وانشال سى غانم مرابعة بعد ندب كفاه

وندب كان يستحقه فى حياته قفاه

ويصف حفلة رقص فى باريس :

يا صاح وحقك ليس على

من راح المرقص من حرج

جمعوا الفتيان مع النسوا

ن فيا للأمر المنبهج

ما كان مغنى القوم يد

ق الدف بلحن منه شجى

حتى انفرطت وحداتهم

ثم ازدوجت بالمزدوج

رجل وقرينته التصقا

بصدور العز وبالمهج

فعلى كتفيه معاصمها

ويداه بخصر ذى عوج

فإذا انجذبت فلمنجذب

وإذا اختلجت فلمختلج

وإذا نقلت قدما رفعت

قدما والرفع بلا عرج

* * *

وهو فنان صحيح ، ولكنه مصرى بسيط فيه كل خصائص المصرى البسيط ، حتى مزاجه مصرى ، بلدى ، وهو يحب النسوان ، وهذه الكلمة بالذات « النسوان » عنوان قصيدة فى ديوانه ، أنا شخصيا أعتبرها أرق ما كتب فى الأدب

العربى عامة عن النسوان :

فى كل عام للورد أوان إلا النسوان
وبقدرتك نابتين ألوان أبيض وأحمر
وانت اللى تعلم وأنا أجهل إيه أجمل
من الخدود اللى لا تدبل ولا تتغير
ودى العيون اللى أشهد لك بها وأسجد لك
دى خلت الطاغى انقاد لك والمتكبر
والشفتين اللى فالقهم كنت خالقهم
للابتسام والا رازقهم دا انت تحير
العبد يعشق بالقوة عشق لجوه
وكمان جهنم ؟ إيه هو ؟ ما احناش معشر
بذمتى انت اللى جاذبنى يا معذبنى
ويللى ذوقك يعجبنى لما تصور
لك صنعة فى العين والحاجب بها تتعاجب
ونقول وجود الله واجب مين بيه يكفر
وليك قوالب فى الأجسام غلب الرسام
يقلدك بحجر ورخام يلقاك أشطر
يا ست أم زناق محبوك وقميص مفكوك
حطى على القلب المشبوك إيدك يعمر
ويام نص ملايا حرير والنص يطير
على أكتاف أنا عقلى صغير غطى المرمر
ويللى ساقك يسوى رقاب حارت الباب
فى لون حقيقته ان كان بشراب والا مقشر
يا مسلمين الله يا حريم أنا مالى غريم
غيركم أروح وياه فى جحيم يوم المحشر .

وهو يسخر من المؤمنين أصحاب الحاجات :

يارب سلطان جمالك يتعبد للذات

خالص لوجهك لا للنيران ولا الجنات

لكن عبيدك وخلقك يعبدوك لغايات

وصبحوا وأنا عبد منهم كلهم ترسات

* * *

وكل شيء في الحياة يستحق السخرية ، وهو صاحب عين نفاذة لا تفوته شاردة ، وهو لأنه صايع ، ولأنه ثائر ، تقع عينه على منظر عادى بالنسبة للرجل العادى ولكن هو الفنان ، يستخرج من المنظر العادى صورة خالدة :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين

ساحبين بتاعة فجل جاية من شربين

أنا قلت إيه الحكاية قال خالفت الجوانين

طب اشمعنى ميت ألف واحد في البلد سارحين

يشرطوا فى الجيوب ويكسروا الدكاكين .

* * *

وعلى نفس الطريق ، يقهقه فى صباه قهقهة دامية :

يا بائع الفجل بالمليم واحدة

كم العيال وكم للمجلس البلدى

إذا الرغيف أتى فالنصف آكله

والنصف أجعله للمجلس البلدى

كأن أمى أبل الله تربتها

أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى .

* * *

ويصوع ويجوع ، ثم يعود آخر الأمر مثخنا بالجراح .. مضرجا بالدم .. ولكنها على أية حال ، عودة إلى البلد

الذى أحبه بشغف ، وإلى الشعب الذى عبده بجنون ، وعلى رصيف ميناء بورسعيد ، يهتف بكلمات كأنها قطرات دم تسيل من قلبه :

غلبت أقطع تذاكر وشبعت يا رب غربة
بين الشطوط والبواخر ومن بلادنا لأوربا
وقلت ع الشام أسافر إياك ألاقيلى تربة
فيها أجاور معاوية وأصبح حماية أمية
فى بورسعيد السفينة رسيت تفرغ وتملا
والبياعين حوطونا بكارت بوستال وعمله
لكن بوليس المدينة ما تزوغش من جنبه نملة
يا بورسعيد والله حسرة ولسه يا اسكندرية
هتف بى هاتف وقاللى انزل ومن غير عزومه
انزل دى ساعة تجلى فيها الشياطين فى نومه
انزل دا ربك تملى فوقك وفوق الحكومة
نطيت فى ستر المهيمن للشط يا حكمدارية
وأقولكم بالصراحة اللى فى زماننا قليلة
عشرين سنة فى السياحة وأشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلبى راحة فى دى السنين الطويلة
إلا أما شفت الملاية واللبدة والجلابية .

* * *

أخيرا عاد .. وسيعيش الآن فى مجتمع الأرزقية ، يأكل عيشه بحذر ، بعد عشرين سنة طويلة من الصياعة والضياعة . اكتشف ان كل شيء لا يزال مكانه .. الخونة فى الصدارة ، وأصحاب القضايا العظيمة فى الذيل لا يشعر بهم أحد .

لكن هل يسكت بيرم التونسى ؟ هل يهمد ؟ هل يسترزق ؟

انه على أية حال سيحاول أن يعيش وسيقاوم ما استطاع ، ويطلبون منه فى النهاية أن يؤلف شعرا للأسرة المالكة ، آخر ما كان يتوقعه بيرم ولكنها فرصة على أية حال ، وسيطلق العنان للسانه ، وسيمدح ولكنه سيجرح فى الوقت نفسه :

ومزارع جوها دافى
وطولها وعرضها وافى
وليه يمشى ابنها حافى
يمد الأيد ويطويها
وليه الباشا والوالى
يجبهم بابها العالى
وليه ما يكونش طوالى
حاكمها من أهاليها .

* * *

تصوروا .. هذا مدح فى العائلة المالكة ، ولأول مرة فى التاريخ بعد قمبيز ، يصبح لمصر حاكم مصرى من أهاليها ويعيش بيرم التونسى حتى يرى المعجزة تتحقق ويصرخ فى ميكروفون الإذاعة ليلة خروج الطاغية من مصر ، وصوته مبلل بالدموع :

يقوم من سراية يروح فى سراية
ويبعث عشايا بنرمين هدية
وخالتى الإذاعة تقول كل ساعة
وعظيم الثنايا جزيل العطية

تحية لابن البلد الفنان الإنسان .. محمود بيرم التونسى ..

* * *

الحيـــاة فى إنســـان

■■ هذه السطور كتبتها عن كامل الشناوى وهو حى ، فلما مات فكرت فى كتابة فصل جديد .. ولكننى عدلت ! .. ولأسباب أحتفظ بها لنفسى . لنترك كامل الشناوى التاريخ .. للتاريخ ، ولتتكلم عن كامل الشناوى الحى ..

كـامـل الشـنـاوى

كان كامل الشناوى رجلا فريدا بين الرجال .. أعداؤه يكرهونه على طول الخط ، وأصدقاؤه يحبونه على طول الخط .. والسبب .. كامل الشناوى نفسه ..

فهو إذا احب ، احب بلا قيد ولا شرط ، وإذا كره ، كره بلا قيد ولا شرط ، وهو مثل القائد الحاسم ، إذا هاجم ، دمر هدفه تماما ، وإذا انسحب ، مضى لا يلوى على شىء ..

السـر

وعلاقته بأى إنسان تحددها صفات هذا الإنسان نفسه ، فإذا كان إنسانا وسطا .. فكامل يكرهه ، « فليس أبغض على قلبى من الشىء الوسط ، ويستوى عندى نصف الأمى ، ونصف المتعلم » !

وهو لهذا السبب نراه يعشق الأذكياء والأغبياء معا .. ويكره الذين يمتازون بنصف ذكاء ، والذين يتمتعون بنصف غباوة .. ولكن ـ وهنا العجب ـ نرى كامل الشناوى لا يطبق هذا المذهب على سلوكه هو نفسه فى الحياة .. مثلا ، انه يعشق الحرية ، ويناضل فى سبيلها .. ولكن نصف نضال .. وهو ينشد العدل ، ويدافع من أجله ، ولكن نصف دفاع .. وهو يحمى المواهب ويحتضن أصحابها ، ولكن أيضا ، نصف حماية ، ونصف احتضان ..

ولابد أن يكون وراء هذا السلوك سر من الأسرار .. ربما

كان السر عقدا نفسية تراكمت بمرور الزمن على نفس الصبى الصغير الذى خرج من السيدة زينب ، ومن بيئة يحكمها ويتحكم فيها سلطان الدين ، ليتربع هذا الصبى الصغير آخر الأمر على رأس المجتمع ، يبهره ، ويدهشه ويشترك فى توجيه مصيره ، وصنع أحداثه ، لفترة طويلة من الزمان .

البحث عن الحياة

ولقد بدأ كامل الشناوى حياته طالبا فى الأزهر ، ثم ما لبث أن هجر الدراسة فيه كافرا بالمناهج العقيمة ، بالعلوم الجامدة التى انفصلت عن عصرنا عشرات القرون ، بالجهل النشيط الذى كان ميزة بعض علماء الأزهر فى تلك الأيام . وخرج كامل إلى الحياة ينشد البحث عن شىء يحن إليه ويحبه ، عن الشعر ، عن الفن ، عن الموسيقى ، عن الغناء .. وبمعنى آخر ، خرج ينشد البحث عن الحياة . فنراه ينضم إلى جمعية للشعراء ، ثم يذهب إلى حافظ محمود ليتعلم منه فن الخطابة والإلقاء ، ثم يبعث إلى جريدة الأهرام بين الحين والحين بقصيدة من نظمه ، ولكن القليل من هذه القصائد كان يرى النور ، أما الغالبية العظمى فكان يجد طريقه بسهولة .. إلى سلة المهملات .

المقلب رقم ١

يقول كامل الشناوى : كان المشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميتة « كجلمود صخر .. وأشياء من هذا النوع ، ولم يكن يستسيغ أبدا هذه المعانى الجديدة ، ولا هذه الرقة التى أخذت تسيل من شعر شبان ذلك الجيل » !

وفكر كامل فى وسيلة ليقنع بها الأستاذ المشرف على

الصفحة بأن شعره يستحق النشر ، ووجد الوسيلة أخيرا فى « مقلب » فيه كل الاحتجاج ، وكل السخط وكل الثورة التى تعتمل فى نفس كامل ، وفيه قبل هذا وبعد هذا .. فن جميل .

ومن هنا ، ستظل « المقالب » من هذا النوع هى هواية كامل الشناوى ، وطريقته المثلى فى التعبير عن رأيه بصراحة فى الأشخاص والأحداث .

فضيحة

ونفذ كامل الشناوى « المقلب » كتب قصيدة من نوع :

سلاما صباحا لا يعم ولا يجرى
ولا الما بها نفسى ولا تدرى

وهات يا شعر من هذا النوع الذى يعجب الأستاذ المشرف على الصفحة ، ثم ذيل القصيدة بإمضاء شاعر مشهور كانت له شنة فى تلك الأيام . وطوى القصيدة ، وبعث بها إلى الأهرام . ونشرت الأهرام القصيدة .. وكانت فضيحة .

الصداقة والشعر

وهكذا أيضا .. دخل كامل الشناوى الأهرام ، محررا بها ، ثم مشرفا على الصفحة .

وكان صيته قد بدأ رغم حداثة سنه ينتشر فى كل الأوساط ، ودخل الشاب السمين الأسمر الذى يحفظ الشعر ويقرضه ، ويقول النكتة ويجيد حبك المقالب ويقلد الأصوات والحركات ، دخل القصور ، وجالس الوزراء ورؤساء الوزراء ، وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية .. محمد محمود .

ولكن ـ وهنا العجب أيضا ـ نرى الشاعر كامل الشناوى الذى أصبح صديقا لمحمد محمود ، لا يمدح بشعره هذا

الحاكم بأمره .. ان القصيدة الوحيدة التى قالها فى مدح زعيم .. كانت فى مدح مصطفى النحاس ، بالرغم من أنه لم يكن صديقا له « وكل ما هناك انه يستحق شعرى » ! لماذا ؟

لأن النحاس كان ممثل الشعب بحق فى ذلك الوقت ، كان أعظم الزعماء ، وإذا كانت الصذاقة لرئيس الوزراء .. فالشعر يجب أن يكون للزعيم .

عـالم جـديـد

ويسأله المرحوم تقلا باشا عما إذا كان له أصدقاء من بين الوزراء فيجيبه كامل الشناوى ببساطة : « اننى أسهر كل ليلة مع محمد محمود » .

ويخبط تقلا باشا كفا بكف ، فأمامه صحفى عبيط يصادق رئيس الوزراء .. ثم يكتب فى جريدته شعرا . ويصرخ تقلا باشا فى وجه الصحفى الغشيم :

— حاول أن تحصل على كل الأخبار من محمد محمود .

ويجيب كامل بنفس البساطة :

— سأحاول ..

ويخرج من مكتب تقلا باشا إلى سراى محمد محمود .

احـتراف الصحــافـة

وفى مجالس الوزراء والزعماء لا يكون الحديث نكتا فقط ولا دردشة فقط ، بل ان الذين يصنعون الأخبار ، يضطرون حتى فى حياتهم العادية إلى الدردشة فى الأسرار والأخبار والأنباء ، وهو الكنز الذى يبحث عنه كامل الشناوى الشاعر الذى قرر أن يكون صحفيا . ومن خلال الدردشة والحديث ، يلتقط كامل الشناوى خبرا هاما ، ان أمين عثمان سيسافر إلى القدس ليجتمع بأحد المسئولين الانجليز ، وأن

مفاوضات على مستوى عال ستدور هناك ، بعيدا عن أعين الصحفيين ورقابة الشعب ..

ويسرع كامل الشناوى إلى الجريدة ومعه الخبر ، ويعيد تقلا باشا صياغة الخبر وينشره منسوبا إلى مراسل الأهرام فى القدس ، ويحدث الخبر هزة فى كل الأوساط ويتلقى كامل التهنئة ، ويقبض مكافأة ضخمة ، أكدت عزمه الذى كان قد استقر على أن يتحول بكل طاقاته إلى احتراف مهنة المتاعب والقلق .. الصحافة .

مقلب مضاد

ويدرك محمد محمود بذكائه ان كامل الشناوى المحرر بالأهرام ، وصديقه وجليسه هو مصدر الخبر ، ولكنه « يبلعها » ويسكت لجولة قادمة ، ليلقن كامل الشناوى درسا لا ينساه .. وذات مساء ، وفى سراى محمد محمود وكامل الشناوى جالس ينصت فى اهتمام ، يعلن رئيس الوزراء خبرا ، هو فى ذاته سبق صحفى عالمى . ان جوبلز وزير الدعاية فى حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرا ، ونزل بفندق سميراميس ، وانه التقى بمحمد محمود فى ظلام الليل ، ودارت بينهما أحاديث خطيرة . ويستأذن كامل الشناوى من رئيس الوزراء ويخرج مسرعا إلى الأهرام .. إلى مكتب تقلا باشا .

ويرتاب رئيس التحرير المدرب فى الخبر ، فيرفع سماعة التليفون ليتصل بفندق سميراميس ، ثم بجميع الفنادق التى يحتمل أن يأوى إليها وزير خارجية ألمانيا ، واتصل بالمطار وبرجال البوليس ، وبكل مكان له علاقة بوصول جوبلز . ولكن الجميع يؤكدون ان الخبر كاذب . ويضطر تقلا باشا فى الفجر إلى الاتصال بمحمد محمود ، وما أن يسمع رئيس

الوزراء صوت تقلا باشا حتى ينفجر ضاحكا ، وينهى المحادثة بكلمة لا تزال ترن فى أذن كامل « عشان كامل يتعلم » !

وفعلا ، تعلم كامل الشناوى من يومها أن يكون حذرا ، ولعل الحذر أصبح أبرز صفاته .. بعد الظرف .

وتمضى الأيام بكامل الشناوى إلى الأمام ، وهو يتنقل من نصر إلى نصر ، وشهرته تطبق الآفاق ، وصيته يدوى كالطبل ، والمال ينهال عليه كما تنهال المياه من جوف القرب ، ويتبخر من بين أصابعه بأسرع مما يأتى ، وهو يحب المال ويطلبه ويسعى فى سبيله ، ولكنه يحبه ـ كما يقول أوسكار وايلد ـ كالجنتلمان ـ يحبه لينفقه ، ويقبض عليه ليتركه يسيل من بين أصابعه !

ويلتقى كامل بوجوه كثيرة ، وأصناف شتى من الناس وأنواع مختلفة من النفوس ، وألوان لا حصر لها ، عباقرة وأغبياء ، وزراء وصعاليك ، فنانون وأدعياء ، أصحاب مواهب ، وأصحاب سلطة ، أصدقاء وأعداء ، وكامل الشناوى يتفرج ويتأمل ويضحك ، ولكنه أبدا .. صديق للجميع ..

ولكن ، كيف يجد القدرة فى نفسه على أن يظل صديقا للجميع ، وهو الفنان الذى ينفعل ويضطرب ويتألم ويصرخ أحيانا فى شعره وفى فنه صراخا رهيبا عنيفا سيظل يدوى أبد الدهر فى سمع الوجود .

لا أحد يدرى ؟

أنا نفسى سألته هذا السؤال ، ولكن بطريقة أخرى :

ـــ كيف تستطيع أن تنافق كل هؤلاء الناس ؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيا على قلب الشيخ الذى بلغ

الخمسين فقال وهو يكبت فى نفسه غضبا ثائرا :

— تعودت أن أجامل الناس ، وما تسميه أنت نفاقا ، أسميه أنا مجاملة .

وفى سبيل هذه المجاملة ترزح نفس كامل الشناوى تحت أثقال من العذاب !

أبــرز صفاته

ومن أبرز صفاته انه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل ، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها ، ويجذبها نحوه ، ويجاهد فى سبيل أن يدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام .. وإذا كان مكتب الشناوى صالونا يلتقى فيه كل مساء رجال الأدب ورجال الفكر ، ورجال الفن ، ورجال العلم ، ورجال فقط ، وأشباه رجال ، فباب كامل الشناوى طريق للمواهب الصغيرة إلى المجد والشهرة .. وإذا كان وراء كل عظيم امرأة ، فوراء كل فنان شاب .. كامل الشناوى وراء الأدعياء أيضا ، وراءهم بلسانه ونكاته وقفشاته ..

ولقد ذكرت من قبل ان كامل الشناوى اختار لنفسه طريقا وسطا فى الحياة .. ينشد العدل ويدافع فى سبيله ، ولكنه نصف دفاع .. ويناضل من أجل الحرية .. ولكن نصف نضال .. ومن أجل هذا أيضا خاض كامل الشناوى غمار كل المعارك التى خاضها الشعب ، ولكنه لم يدخل السجن أبدا ، فقد كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسبا للقتال ، حتى إذا هبت العاصفة آثر كامل أن ينحنى لها حتى تمر ، فإذا انقضت عاد كامل مرة أخرى إلى النضال .

ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوى ، وهو ذكاء من فصيلة « الذكاء العام » للشعب .

لقد خاض الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل آلاف المعارك وشهد عشرات الغزوات والمحتلين ، ولم يلن الشعب ولم يستكن ، ولم يهدأ بل ظل يقاوم ويناضل ، وذهب كل الغزاة ، وكل الطغاة ، وبقى الشعب .. ذلك لأنه آثر ألا يدخل معركة حاسمة مع أعدائه قد تنتهى بإبادته ..

عاشـــق الليــــل

وكما يعشق كامل الشناوى الأدب والفن ، فإنه يعشق الليل ، الحياة عنده تبدأ عندما يبدأ الظلام ، ولا يأوى كامل إلى فراشه إلا عند الفجر ، ومن المؤكد انه يكره الوحدة ، ولديه قدرة عجيبة على العمل وسط مائة إنسان ، وفى جو صاخب عاصف ، وهو يبدو دائما هاربا من شىء فى نفسه ، وطاقته المبدعة يفرزها قليلا فى الكتابة ، وكثيرا فى الكلام .. انه يعشق الكلام أيضا .. وهو أسعد ما يكون عندما يتكلم فى الأدب ، وأنت تحس عندما تسمع كامل ينشد الشعر .. إنه يضيف إلى القصيدة معانى جديدة لم تكن تحس بها من قبل ..

ولكن هذا الولع الشديد بحب الكلام والذى أمتع الآلاف وأسعدهم قضى على كامل الشناوى كأديب ، إذ أنه لم ينتج أدبا على ورق ، وكل روائع كامل وآثاره الخالدة كانت طلقات فى الهواء .

وأعجب ما فى كامل انه وهو الذى يقدر النكتة ويعشقها ويضعها أحيانا فوق كل اعتبار ، يفزع من النكتة ويرهبها إذا كانت مصوبة إليه ، صحيح انه يحب النكتة ، ويطرب لها ، ويضحك من أعماقه عليها ، على شرط أن يكون هو قائلها ، وفى جلسة مريحة ، وبين أصدقاء أعزاء ، ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده ، إذا كانت تعنيه .. ان موقفه

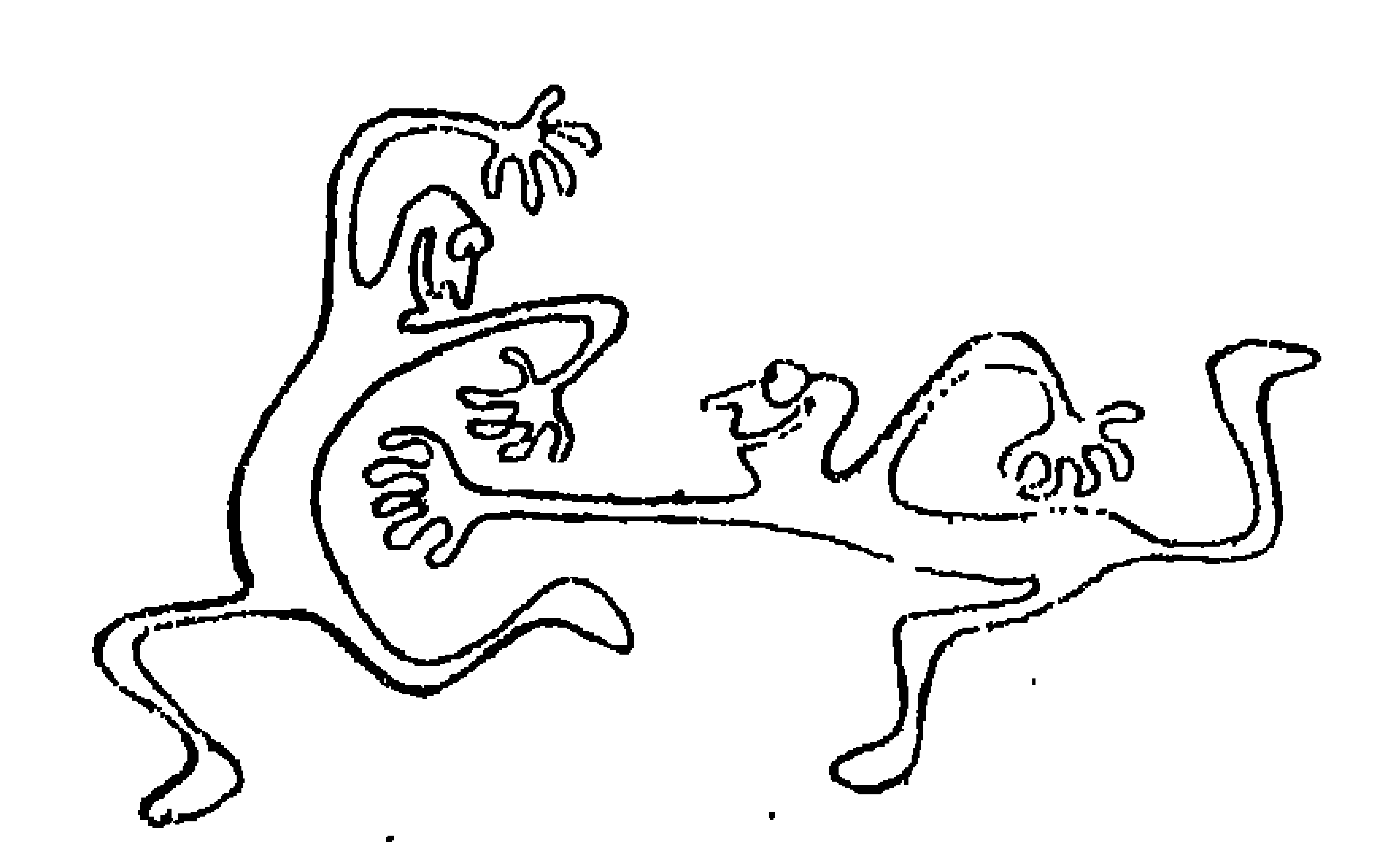
منها كموقفه من المعارك ، يخوضها إذا كانت لا تقضى عليه .

ومهما يكن الأمر ، فقد ذاق كامل الشناوى كل ألوان الحياة ، ذاق خيبة الأمل ، وذاق الفشل ، وتجرع النجاح ووصل إلى القمة ، وربح الألوف ، وعاش كالمهراجات ، وأنفق كل ما ربح ، وعرف عشرات الألوف من الناس ، وأحب وتألم وشعر بالرضا ، وشعر بالسخط ، وكان دائما ثائرا على كل شىء ، حتى على نفسه .. ولكنه استطاع ببراعة وبذكاء أن يسير على حبل الحياة دون أن يسقط .. وعاش حياته كما اشتهى أن تكون حياته ، واختلفت صورته عند الناس ، فمنهم من يعده مازحا ، ومنهم من يعتبره فنانا ، وهو عند البعض أديب ، وعند الآخرين صحفى ، ولكنى أعتقد انه كل هذه الأشياء ، وانه إنسان ، وإنسان فريد من نوعه ، جمع فى نفسه وبين جوانحه كل ما فى الحياة العريضة المتلاطمة ، من متناقضات ، وببساطة اننى أعتقد ان كامل الشناوى هو .. الحياة ..

وليعذرنى القارىء إذا ضربت صفحا عن نكات كامل الشناوى وقفشاته ، فهى شائعة ذائعة على كل لسان . وليعذرنى كامل الشناوى نفسه إذا كنت قد أخطأت ، وهذا الذى كتبته ليس تاريخا لحياة كامل الشناوى ، وإلا لكنت احتجت إلى مجلد ضخم قد تنتهى صفحاته قبل أن ينتهى الحديث عن كامل الشناوى ، ولكنه مجرد انفعال شخصى بأستاذ زاملته حينا ، وصاحبته حينا ، واتفقت معه حينا ، ولكننى أحببته على الدوام ..

أمتــع هواياتــه

وبعد ، ان قصة الصبى المعمم الصغير الذى خرج من السيدة زينب ، وهرب من الأزهر ، ليتربع على رأس المجتمع ويشترك فى توجيهه وصياغة مصيره لفترة طويلة من الزمان ، قصة هذا الصبى لم تنته بعد ، وأغلب الظن انها لن تنهى أبدا .. فلقد آثر كامل الشناوى فى عصره كما تأثر به ، وأثر فى العشرات الذين تتلمذوا عليه ، والذين أعجبوا به ، والذين شغفوا بفنه .. وسيظل كامل الشناوى طرازا فريدا بين أدباء العصر ، وسيظل بابا لكل الموهوبين من الشباب إلى الجنة ، وستبقى حياته .. أعظم إنتاجه ، كما كانت الحياة عنده .. أمتع هواية لديه .



ليس بعد الضحك ذنب !

■■ « إذا كان ليس بعد الكفر ذنب :
فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدة
للإنسان »

ليس بعد الضحك ذنب

إذا كان ليس بعد الكفر ذنب ، فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدة للإنسان . بشرط أن يكون الضحك بواسطة .. فن عظيم ! والشعب المصرى شعب ضاحك بطبعه ، علمته سنوات الذل والكبت والعدوان أن يسلي همه بالنكت والتاليس والضحك على الفاضي والمليان ! ولذلك كان من الصعب أن تكون ساخرا فى مصر ، إذ كيف يستطيع فرد واحد أن يضحك شعبا من الساخرين العظام ! .. والنكتة المصرية مثل الطرشي والليمون المعصفر والطافيا .. معتقة وحراقة وكاوية تنطلق أحيانا كالرصاصة تندب فى الضلوع ! ..

وأول نكتي شهير فى مصر كان يعيش فى عهد كافور الأخشيد ، وكان اسمه سيبويه المصرى ، وذلك لغرامه الشديد بالفصحى ، وتعلقه الشديد بالصرف والنحو والإعراب ، وكان سيبويه يركب حمارة بيضاء اللون ويمشى فى الأسواق هاجيا أعداءه ومنافسيه بأفحش الألفاظ ، وعندما سئل لماذا تركب حمارة ، قال : لأن عندى فى البيت حمارة تركبنى !

ولقد جاء المتنبى إلى مصر فحمل عليه سيبويه المصرى حملة شعواء ، وكان من الأسباب الرئيسية التى نفرت المتنبى من مصر ومن أهل مصر ، وجعله يهجوهم ويهجوها بشعره الرائع العظيم .

الشعر الحلمنتيشى !

ولقد ظهر في مصر بعد ذلك بنصف قرن فقط عشرات ومئات مثل سيبويه المصرى ولكن على نحو آخر ، شعراء عقلاء وعلماء تحولوا فجأة إلى مجانين يقولون أشعاراً ولا لخبطة البغبغان ، أولهم أبو الرقعمع ، وابن مكنسة ، وابن دانيال ، ولقد استمر هذا الشعر وتطور ، وأطلقوا عليه في العصر الحديث اسم الشعر « الحلمنتيشى » ونبغ فيه عباقرة أفذاذ كان من بينهم حسين شفيق المصرى ، ومحمد مصطفى حمام . وقد ترك حسين شفيق المصرى ثروة هائلة من الشعر الحلمنتيشى كان أعظمها « المشعلقات السبع » على وزن المعلقات السبع التى تركها فطاحل الشعراء العرب معلقة بخيوط من ذهب على أستار الكعبة !

ولقد حرصت على تدوين نص المشعلقة فى الجزء الخاص بشفيق المصرى وذلك لكى يقف القارىء على مدى الجهد الذى بذله الشاعر الحلمنتيشى فى كتابة هذه المشعلقة ، ذلك أن بعض الموهومين يظنون أن الشعر الحلمنتيشى سهل !! وأنه يكفى أن تقول أى كلام فارغ وهايف لتصبح من الشعراء الحلمنتيشيين !

ولكن الغريب فى الأمر حقا أن يكون الشعب المصرى هو الشعب الوحيد فى العالم الذى يفرز شعراء من هذا النوع .. وأن تكون مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى يقول شعراؤه شعرا من هذا اللون !

ومن الانصاف أن أقول أن هذا الشعر الحلمنتيشى لم يزدهر ولم يصبح أدبا محترما إلا فى مطلع القرن العشرين ، حيث كان وسيلة للنقد وسلاحا فى معركة التريقة على أوضاع الحكم . وصرخة احتجاج ضد الأوضاع المقلوبة فى

الحياة .

والواقع أن النكتة المصرية والفكاهة عموما لم يصبح لها وضع مرموق إلا فى العصر الحديث . ذلك أن الرجل الفكهى كان لايعدو مجرد مهرج أو أراجوز أو طالب قوت فى نظر الآخرين ، وإن كان الإنصاف أيضا يقتضينا أن نقول أن السواد الأعظم من الناس الفكهية كانوا فى الواقع أرزقية وطلاب قوت .

والسبب أنه فى مطلع هذا القرن اقتحم سوق الفكاهة عدد من الوجهاء وكبار الموظفين ومشاهير الأدباء من بينهم الدكتور بكير الحكيم ، ورشاد بك القاضى ، والدكتور محمد رأفت ، وحسن بك رضا المحامى ، ومحمد بك المويلحى ، ومحمد بك البابلى ، ونعمان باشا الأعصر ، وخليل بك خير الدين ، وحافظ بك ابراهيم ، وساويرس بك ميخائيل ولم يمارس هؤلاء الناس الصنعة لإضحاك الناس ، بل للضحك عليهم .

وقبل أن يدخل السوق هؤلاء الإعلام ، كانت الفكاهة مجرد « قفش » ومهرجان للقافية . وهذا النوع من الفكاهة لا يحتاج إلى ذكاء كثير ، بل يحتاج إلى براعة فى التأليف ، وهو لا يحتاج إلى سرعة خاطر لأن أغلبه محفوظ ومكرر ومعاد ويقال فى كل مقام . فإذا كانت قافية السيارات مثلا يقال :

— وشك من الضرب

— اشمعنى .

— كبر ليه .

ويقال أيضا ..

— لما تخش بيتكو

— اشمعنى

— يبقى فيه تيس

ولاحظ التلفيق الذى بين كابور ليه ، وكبرليه ، وكذلك بين فتيس السيارة ، وفيه تيس التى يقصدها الفنان المشترك فى القافية .

ولقد برز فى هذا اللون من الفن عشرات وألوف ، ولكن ابرزهم على الإطلاق كان إمام العبد ، ثم يأتى حسين الفار ، وسلطان الجزار .

ولكن هؤلاء البهوات المتفرغين للنكتة ، طوروا القافية إلى شيء آخر رفيع .

ولقد شارك البابلى مشاركة فعالة فى تطوير النكتة المصرية وتهذيبها ، حتى ليجعل السامع يموت من الضحك بعبارات أرق من النسيم ، وهو فى هذا بعكس بيرم التونسى ، الذى يضحك بكلام صريح وعبارات صريحة ومعنى أكثر صراحة .

يقول بيرم التونسى :

فى الأربعة دول فقى عاجز نظر وخبيث
قاعد مقرفص وفاتح جبته لإبليس
لأنه عارف بقى المنزل مافيهش أنيس
غير المرة والمشايخ كلهم عميان
كحت وقالت لسيدنا صاحب العمة
تعرفش تقرا لى عدية يس كامله
الليلة حالا وتقلبها على كاملة
بنت أم غانم وعيشة بنت خضرة كمان
قال الفقى كل شيء حاضر وأنا خدام
لكن مفيش وقت ياللا استعجلى لنا قوام
واعطى المشايخ حسابهم يذهبوا بسلام

وأنا أبات لـك بعديـة يس سهران

* * *

والمعنى هنا واضح وصريح لا لف فيه ولا دوران

وكان المعلم دبشة الجزار من أعلام القافية أيضا ، ولكن أكثر ما قاله لم يدون ، ولكن من القليل الباقي له عبارات تدل على ذكاء حاد وسرعة بديهة ليس لها مثيل .

* * *

ويعتبر مأمون الشناوى هو التطوير الجديد لهذا الاتجاه ، نكتته مزيج من القافية والنكتة ، علق على أطراف الزيادة في وزن حمادة الطرابلسي فقال : « أنا كنت قاعد وشفته وهو بيتخن » .

وكان يركب سيارة مع صديق فقال لصاحب السيارة :

— ما تخاسب شوية .

فقال الصديق :

— أصل الشارع كله مطبات .

وقال مأمون :

— مش معقول المطبات دى كلها فى الشارع ، دا لازم مطب لزق فى العجلة .

وكان يركب سيارة قديمة جدا وقذرة جدا ، فقال للسائق :

— أبقى اغسل القزاز بتاع العربية .

فقال السائق :

— دا مفيش ازاز يابيه ، دا الإزاز مكسور .

فقال مأمون :

طيب أبقى اغسل الهوا .

ولكن كامل الشناوى كان على عكس هؤلاء . كانت النكتة عنده قصة قصيرة وصورة فنية . وهذا النوع من النكت نبغ

فيه عشرات من الناس ولكنهم جميعا تلاميذ فى مدرسة كامل الشناوى ، ومن هؤلاء عبد الحميد قطامش المحامى ، وعباس الأسوانى ، وزكريا الحجاوى .

وان كان زكريا الحجاوى أكثرهم براعة عندما يتكلم ، فإذا كتب تحول إلى إنسان آخر متجهم شديد الكآبة .. كأنه مستودع أحزان !

والحقيقة أنه ليس كل من يقول النكتة يجيدها فى الكتابة . فقد كان البابلى من أبناء النكتة العظام ولكنه لم يكتب شيئا ، وعبد الحميد قطامش كلامه يقطر سخرية وضحكا ، ولكنه حين يكتب شيئا لا وصف له على الإطلاق ، ولو أن عباس الأسوانى استطاع ان يكتب كما يتكلم لأصبح لدينا أديب ليس له نظير على طول الزمان .

ومن هذا الطراز أيضا كان الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقد كان تمسكه باللغة العربية الفصحى الحقة ، هو الحائل بينه وبين اكتشاف روحه الحقة كأديب . وأعظم آثاره فى النكتة هى التى تركها شفاهة..

دخل مرة على حافظ ابراهيم وكانا فى طريقهما إلى رحلة ، فاستمهله حافظ ابراهيم حتى يغسل وجهه ، فقال له البشرى :

— وشك مش عاوز غسيل ، نفضه كفاية .

وكان الشيخ البشرى فى مأدبة عند الأباظية وحين عاد بعد أن غسل يديه اكتشف أن أحدهم قد رسم وجها لحمار على الجبة فقال البشرى :

— مين فيكم اللى مسح وشه فى الجبة ؟!

ويشكو لطبيبه من ألم فى المصران الأعور ، ويشير له إلى مكان الألم ، فيطمئنه الصديق بأن المصران الأعور فى

الجهة اليمنى والألم الذى يعانيه فى الناحية الشمال ، فقال البشرى :

طيب ما يمكن أنا أعور شمال .

ولكن الشىء الذى تطور حقا هو فن الكتابة الضاحكة .

ولقد كانت كتابات البشرى هى أعظم المحاولات فى هذا الطريق ، وكذلك استطاع بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى أن يضيفا أشياء كثيرة إلى فن البشرى ، والسبب هو قدرتهما الفائقة على استعمال العامية ، وثقافتهما العريقة فى التراث .

وكانت مجلة البعكوكة إضافة جديدة مستقرة ، لأن كل المحاولات السابقة لم يتوافر لها الاستمرار كالسيف والمسامير والشجاعة والخلاعة . وحتى الكشكول أيضا لم يكتب لها البقاء . ولو لم ينضم صاحب البعكوكة إلى قلم الاستعلامات البريطانى ، ولو لم يكرس جهوده للحرب ضد بيرم التونسى ، ولو لم يبذل جهدا فائقا لنفاق الملك وبطانته ، لولا هذا لكانت مجلة البعكوكة هى خير ما نعتز به فى هذا المجال . ذلك أن الفكاهة لا يمكن أن تدوم طويلا إذا كانت حربا ضد المبادىء ، أو إذا استخدمت ضد الشعب .

ثم جاءت بعد ذلك مجلة كلمة ونص وكانت إضافة جديدة بعد البعكوكة .

وتعتبر مجلة صباح الخير هى آخر فوج هذا الطابور . ولكن ينبغى لنا الوقوف لحظة عند مجلة الفكاهة التى أصدرتها « دار الهلال » والتى كان يحررها حسين شفيق المصرى ووليم باسيلى .

فلقد كان العيب الحقيقى فى هذه المجلة هو الوقوف فى الوسط بين الطغاة والمحكومين ، وبين الاستعمار والشعب ،

لظالمين والمظلومين ، فكانت الفكاهة فيها للفكاهة ولذلك لم تصمد طويلا ، واضطرت دار الهلال إلى ادماجها في مجلة « الاثنين والفكاهة » ولعل هذا هو عيب وليم باسيلي أيضا ، فلو أنه اتخذ لنفسه موقفا محددا فلربما كان له الآن شأن آخر . ولكنه آثر الحياد في المعركة ، لذلك كانت فكاهته فاترة باردة لا تنفذ حتى العظم .

والفكهي الحق ينبغي أن يكون ممرورا غاية المرارة ، وإلا فإن فكاهته تصبح ضربا من اللهو .

ومن كتاب الفكاهة العظام يحيى حقي ولكنه آثر السكوت لا أدرى كيف ؟ وجليل البندارى أيضا كاتب فكهي جيد ولكنه عندما يتكلم يتحول إلى شتام . وصلاح جاهين كاتب فكهي ممتاز ولكنه عندما يتكلم لاتسمع أى شيء ، وأحمد رجب يعيبه أنه وقع في نفس الخطأ الذى وقع فيه وليم باسيلي من قبل ، ومحمد عفيفي كاتب فكهي جيدا ولكنه يبدو في كتاباته متأثرا بالغرب أكثر من تأثره بالتراث . ولكن كل هؤلاء على مستوى أعظم بكثير مما كان عليه الذين سبقونا إلى رحمة الله .

ابن ســـودون

ولعل من غريب الأمور أن الكتابة الفكاهية منذ ٥٠٠ سنة كانت أحسن منها في أوائل هذا القرن . فقد كتب ابن سودون المصرى أشياء رائدة وبسيطة تصلح للنشر هذه الأيام .. كتب مرة خطابا إلى أبيه في الصعيد :

« ويا والدنا العزيز أعرفك اننى نجوت من خطر خطير وشر مستطير ، فقد غسلت الجبة ونشرتها على حبل الغسيل ، كانت الليلة قمرها غائب وبردها أثيل ولذا تعكر الجو فجأة ، وهبت ريح عاتية ، من جهة الشمال آتية ، وإذا بالجبة تطير ،

وعلى الأرض تستقر ، فوالله يا والدى ، لو كنت أنا فى الجبة ساعة هذا الحادث الخطير لكنت مت فى الحال وأصبحت جثتى كالفطير .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير » .

هذه عينة من كلام ابن سودون .

وإليك عينة أخرى من كلام البشرى :

« ولقد كان حافظ ابراهيم يعرف عنى شدة الخوف مثلا من سرعة السيارات ، يستدرجنى إلى أحداهن لنزهة أو لغدوة ولا أركب حتى استوثق من أن السائق لايسرع ، وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد الخنزير يبدأ عمل السيارة ، حتى يجريها فى سرعة الكوكب الهادى والبرق الخاطف ، ما يبالى زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرقى قلعة ، أو مشت على حافة ترعة أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف منه على توقع السلامة » !

من هذه المقارنة نجد أن كفة ابن سودون أرجح ، فإذا قارنا الاثنين بأى كاتب ساخر جديد وجدنا أن النتيجة فى جانب الجديد .

وأعتقد أن بمصر عددا من الكتاب الضاحكين أضعاف أضعاف ما هو موجود فى أى بلد آخر .

وفى المانيا الغربية مثلا يدفعون ثلاثة أضعاف الأجر المحدد لمن يكتب برنامجا يضحك المشاهدين .

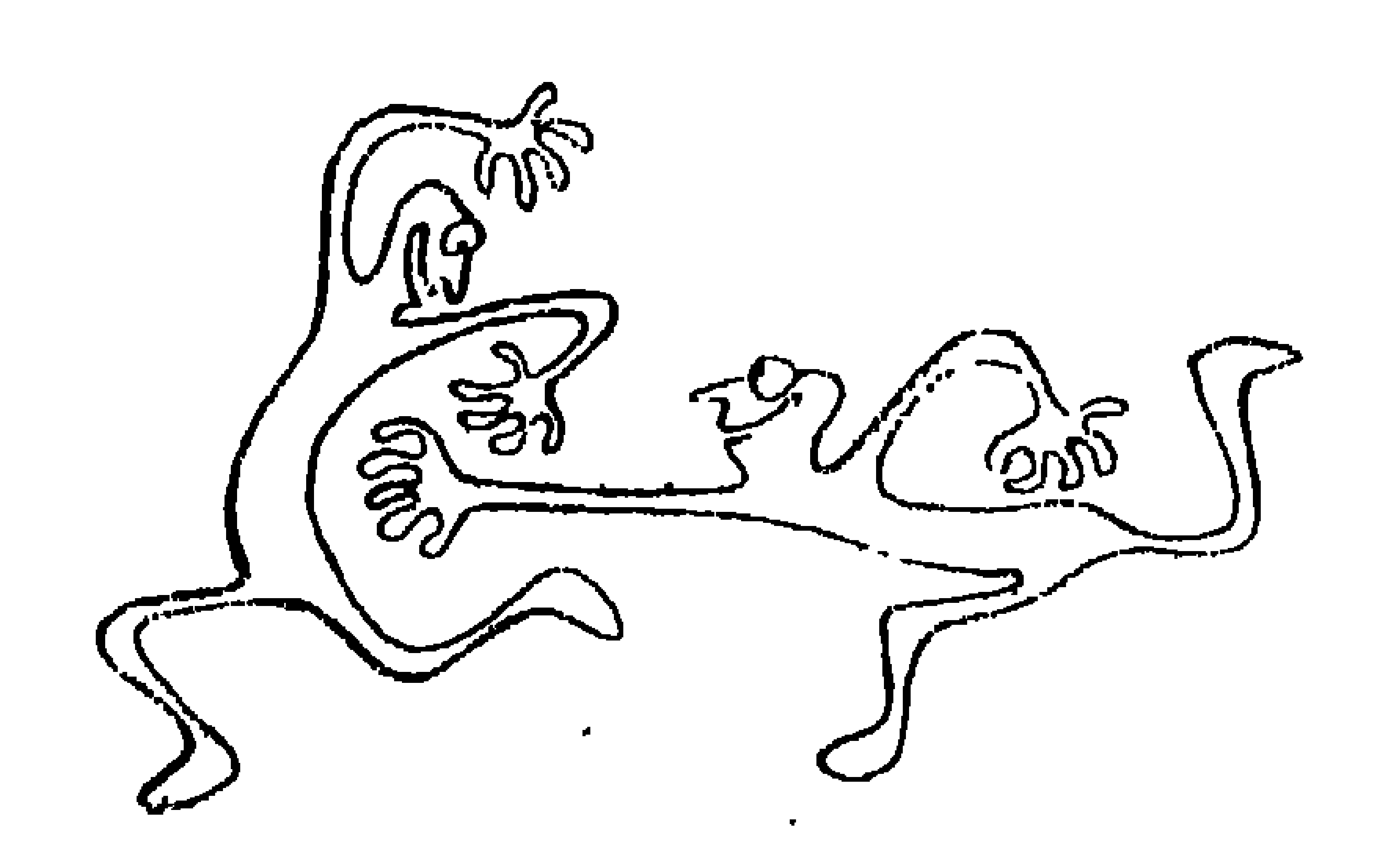
وفى ألمانيا الشرقية دور النشر تترجم كل الكتب الساخرة التى تصدر فى أنحاء العالم .. لأنه لا يوجد كاتب واحد ساخر فى ألمانيا كلها .. غربها وشرقها .

ولعل كتابنا المسرحيين جميعا من الكتاب الفكاهيين .

وأعظمهم فى هذا المجال بلا شك نعمان عاشور ، ويأتى بعده سعد وهبة ، ثم الفريد فرج .

ولعل مصر أيضا هى البلد الوحيد الذى يتمتع بهذا العدد الوفير من رسامى الكاريكاتير . ذلك أن الرسام الكاريكاتير هو كاتب ساخر ، لأن الكتابة الساخرة هى الأخرى نوع من الكاريكاتير .

فإذا استثنينا من رسامى الكاريكاتير صاروخان ، وطوغان ، وعبد السميع ، باعتبارهم رسامى سياسة وأحداث ومواقف درامية ، لو استثنينا هؤلاء لوجدنا عشرات من الرسامين الفكهين ، أعظمهم بلا جدال ، رخا وصلاح جاهين ، وبهجت ، وحجازى ، وإيهاب ، وجورج ، وطوغان ، والمضحك العام مصطفى حسين .



رقم الايداع ٤٨٧٤ / ٩٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 08 - 0393 - 6